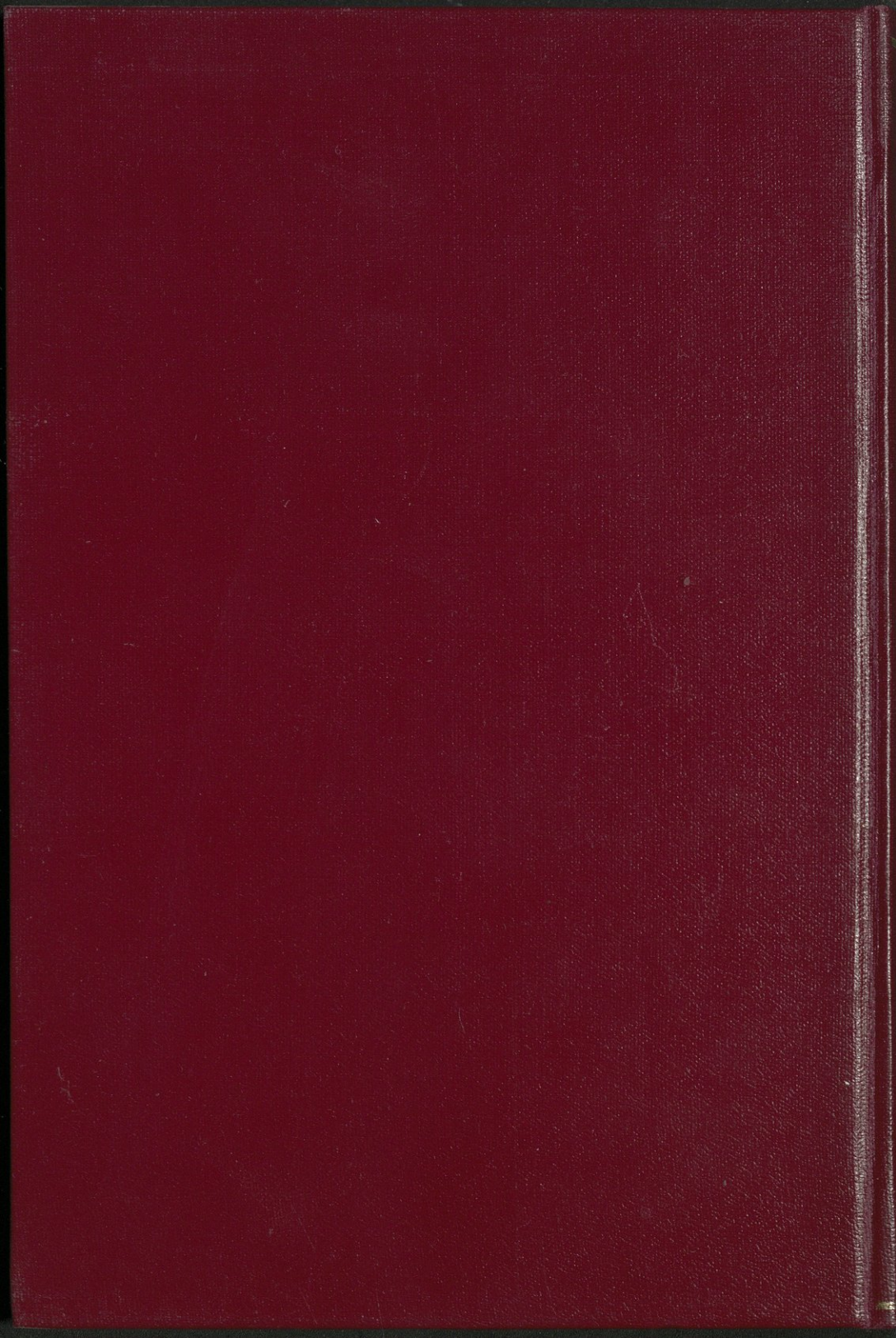
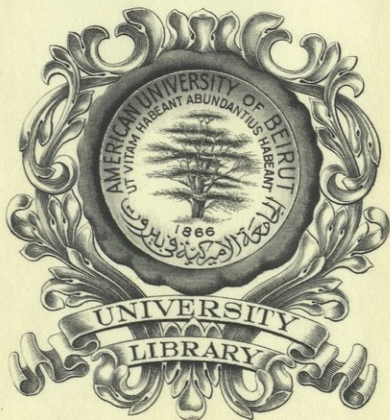
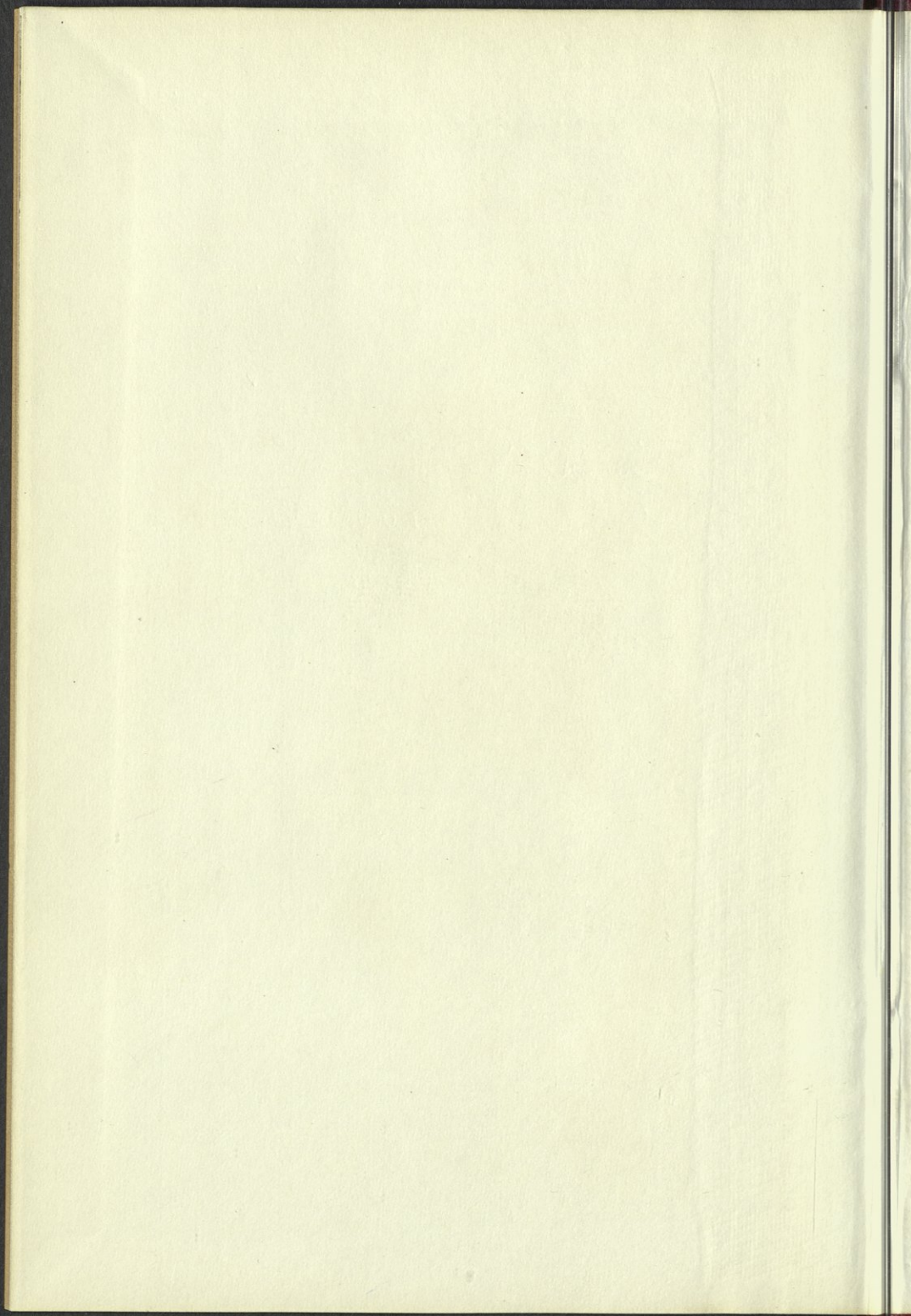
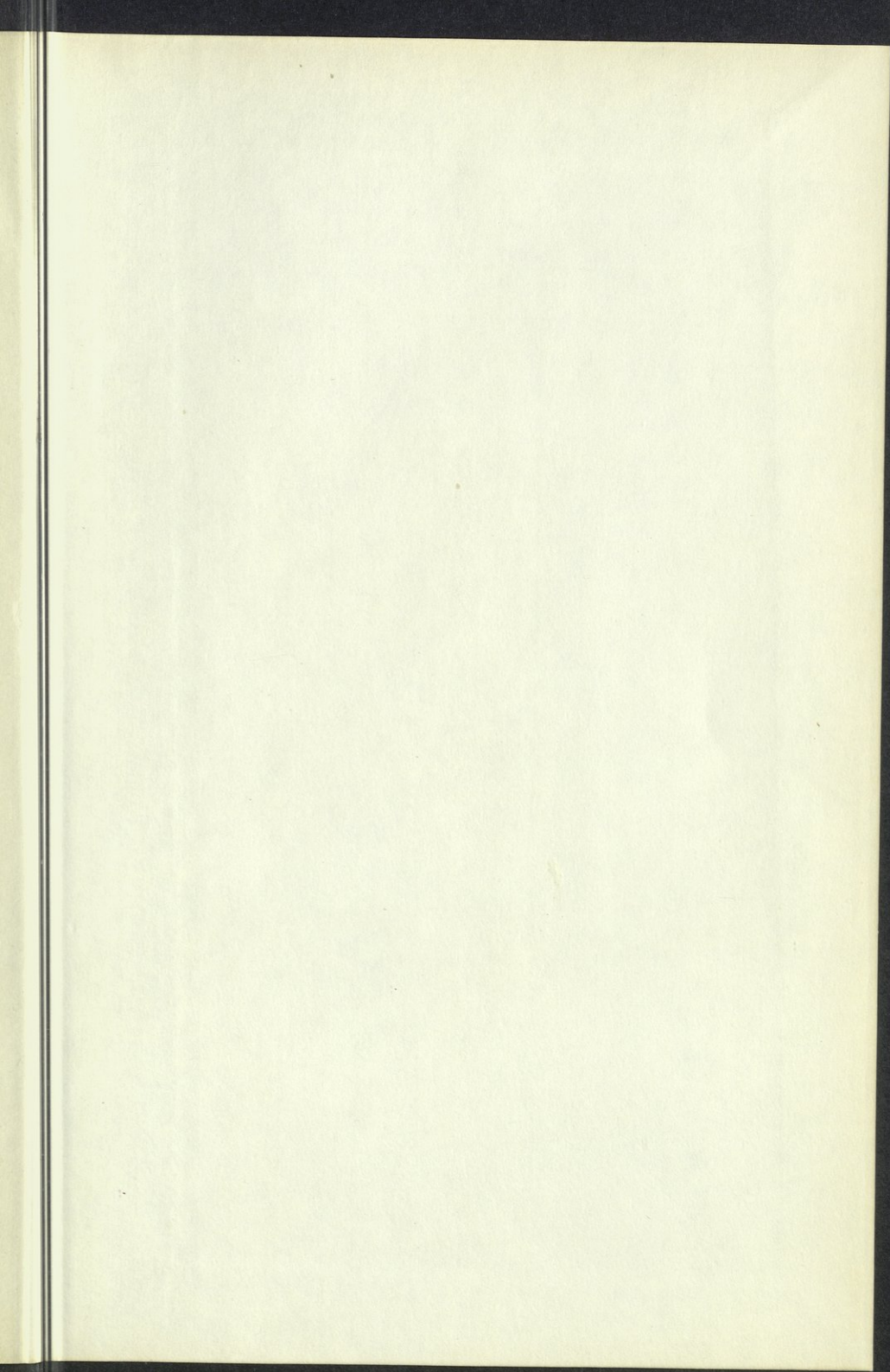




AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







مكتبة جامعة القاهرة

المدخل في علم الاجتماع

تأليف

دكتور السيد محمد

مدرس في الاجتماع بكلية الآداب
جامعة القاهرة
الطبعة الأولى



77832

مكتبة جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

12-10-1914

A 5.

301
M451A96

بريفيه مونييه

أسناد علم الاجتماع بجامعة باريس

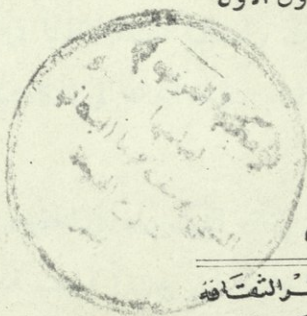


المدخل في علم الاجتماع

ترجمه وقدم له

الكسندر سيربيري

مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب
ومعهد العلوم الاجتماعية
بجامعة فاروق الأول



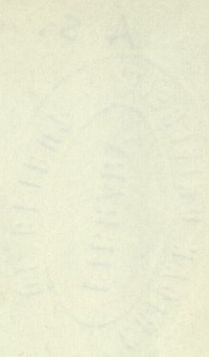
77882

مطبعة دار النشر والثقافة
بالاسكندرية

Cat. Dec 51

301
M45-40-5

مكتبة
الشيخ
الشيخ



کتابخانه
کتابخانه

کتابخانه

کتابخانه

کتابخانه
کتابخانه
کتابخانه



کتابخانه
کتابخانه

کتابخانه

مقدمة المترجم

ظل مؤلف هذا الكتاب مدة طويلة أستاذا لعلم التشريع والاجتماع الاقتصادى بكلية الحقوق بجامعة باريس . وكان يعنى فى محاضراته فى علم الاجتماع على وجه الخصوص ببحث النظم السائدة فى مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار . وبفضل هذه الابحاث أصبح عضوا فى الاكاديمية العلمية لشئون المستعمرات . وقد اضطرته دواعى العمل وضرورات البحث لأن يقضى جزءاً كبيراً من حياته بعيدا عن وطنه فرنسا . فأخذ يحب الافطار النائية باحثا مدققا فى البحث حتى لقب فى الأوساط العلمية «بطواف الكرة الأرضية» . وقد قضى ردحا من الزمن فى مصر وله فيها نشاط على ترجمت عنه المقالات التى نشرت له عن ابن خلدون فى مجلة «مصر المعاصرة L'Egypte Contemporaine» التى كانت تصدر بالقاهرة عام ١٩١٧ . كما عاش فى الجزائر والهند الصينية وسيام ولبنان وسوريا وتونس ومراكش وطرابلس وكندا والولايات المتحدة وفى جزائر الانتيل . هذا عدا أقطار أوروبا التى زارها كلها تقريبا . وقد جمع خلال هذه الرحلات مجموعة قيمة من المشاهدات والملاحظات واستغلها استغلالا طيبا فى أبحاثه الاجتماعية . وقد نال مرتين شرف التقدم بنتيجة أبحاثه الى «أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية» .

ولد رنيه مونيه فى سنة ١٨٨٧ ونال الدكتوراه فى الحقوق فى سنة

١٩٠٩ . وتبوأ كرسى الاستاذية فى جامعة ليل Lille فى سنة ١٩١٠

وقد كانت سنه حينذاك قد جاوزت الثالثة والعشرين بقليل فكان رقبا
قياسيا في تاريخ الجامعات. وقد ظل في كرسى الاستاذية ثلاثة وثلاثين عاما
قضى خمسة عشر منها فيما وراء البحار حتى اعتزل العمل في سنة ١٩٤٤ .
ومن الطريف أن يعلم القارئ المصرى أنه في نفس السنة التي بدأ فيها
مونييه عمله في جامعة ليل، أى في سنة ١٩١١، عرض عليه أن يكون أستاذا
في « مدرسة الحقوق الخديوية » بالقاهرة. فرحب مونييه بهذا العرض وقبل
هذا المركز الذى يتيح له السفر إلى أرض الفراعنة ومهد الحضارة. وحضر
إلى مصر وقام بتدريس القانون الجنائى والاقتصاد السياسى. ثم تولى في
سنة ١٩١٧ إدارة شئون الاحصاء والنشرات بوزارة «الحقانية» المصرية
-وزارة العدل الآن- وقد تركزت له في هذا العمل خبرة طيبة في شئون
الاحصاء ونشر مؤلفا في ثلاثة مجلدات عن الاحصائيات القضائية في مصر.
وكان يشغل في نفس الوقت وظيفة الامين العام « للجمعية المصرية للاقتصاد
السياسى والتشريع ». ونشر عن طريق هذه الجمعية وبفضل عاهل مصر
الراحل المغفور له الملك فؤاد الأول المجموعة الضخمة عن «مراجع الدراسات
الاقتصادية والتشريعية والاجتماعية في مصر الحديثة» (أنظر قائمة المؤلفات
في ذيل هذه المقدمة). وتحتوى هذه المجموعة على ما يقرب من ٧٠٠٠ سبعة آلاف
مرجع وتعد من أهم أدوات البحث لمن يشغل بالدراسات الخاصة بوادى النيل.
وفي سنة ١٩١٩ تقدم مونييه لنيل شهادة الاجرجاسيون وهى أرقى
شهادة تمنحها كليات الحقوق في فرنسا. ونال الدبلوم بجدارة «شعبة العلوم
الاقتصادية». ثم عين بعد ذلك أستاذا في جامعة الجزائر حتى يستطيع أن

بواصل ما بدأه من دراسة النظم الاسلامية. وما أن وطأت أقدامه أرض شمال أفريقيا حتى بدأ أبحاثه في دراسة قبائل البدو من البربر والعرب على السواء. وقد نشر أهم هذه الابحاث في مجلدين أحدهما بعنوان «مصنفات عن علم الاجتماع في شمال أفريقيا» (١٩٣٠) والآخر بعنوان «عادات جزائرية» (١٩٣٥). وله في هذا المجال كتابات ومؤلفات أخرى بعضها محلي برسومات رسمها المؤلف بريشته.

وفي سنة ١٩٢٤ عاد مونييه إلى باريس حيث استدعته الحكومة ليشغل كرسي الأستاذية في جامعة باريس وهو شرف لا يناله إلا كبار الاساتذة الذين قضوا سنوات عديدة في جامعات الأقاليم. ولم تكن مسنة حينذاك أكثر من سبع وثلاثين سنة. وما أن استقر في باريس حتى تضاعف نشاطه العلمي وأخذت مؤلفاته وأبحاثه تصدر تباعا الواحد تلو الآخر. وكانت شهرته قد ذاعت في الأوساط العلمية خصوصا بعد أن استمع الناس إلى محاضراته القيمة التي تناول فيها النظم الاجتماعية في المستعمرات وعالجها من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. وقد استمر يحاضر في هذا الموضوع في جامعة باريس زهاء عشرين عاما.

ثم نشر في سنة ١٩٢٩ «المدخل في علم الاجتماع» وهو الكتاب الذي نضع اليوم بين يدي القارئ ترجمته العربية. ويحتوى على خلاصة للدروس التي كان يلقها الأستاذ في مدرسة الدراسات الاجتماعية العليا. وفي سنة ١٩٣٠ أصدر «محاولات في دراسة الطوائف الاجتماعية». وحاول أن يضع فيه تصنيفا شاملا لأنواع الجماعات الإنسانية. ثم عاد وتناول نفس الموضوع بكثير من التعمق والتوسع في المنهج الذي وضعه لتأليف موسوعة

في علم الاجتماع (١٩٤٣). وقد استحق على مجهوده هذا جائزة أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية.

وقد أخرج مونييه في خلال العشرين سنة التي قضاها في كرسي الأستاذية مؤلفات أخرى كثيرة خاصة بشؤون المستعمرات من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية (أنظر فيما يلي قائمة المؤلفات) . واشترك معه فيها مجموعة من تلاميذه. وقد أراد أن يسهل على هؤلاء التلاميذ وسائل البحث فاقترح إنشاء قسم للدراسات الاثنولوجية بمعهد القانون المقارن الملحق بكلية الحقوق. وما لبث أن ظهر نشاط ذلك القسم في المؤلفات والابحاث التي نشرها تحت إشراف الأستاذ بعنوان «دراسات في الاثنولوجيا وعلم الاجتماع التشريعي». وقد جمعت هذه الدراسات في حوالى خمسة وثلاثين مجلدا. وحين أرادت الجامعة أن تعبر عن عرفانها بفضل هذا الأستاذ وبما أسداه للعلم من خدمات منحتة في سنة ١٩٤٢ شرف رئاسة مسابقة الأجر جاسيون في كليات الحقوق وأصبح أيضاً المشرف العام على الدراسات السياسية في المدرسة العليا لشؤون المستعمرات.

وقد تمتع الأستاذ في حياته بعضوية كثير من الجماع والمعاهد العلمية: فكان عضواً في أكاديمية شؤون المستعمرات (١٩٣٢)، وعضواً في المجلس الأعلى لمستعمرات فرنسا فيما وراء البحار (١٩٣٧)، ورئيساً لجمعية الاساطير الشعبية «الفولكلور»، ورئيساً للمجمع الدولي لعلم الاجتماع. كما نال الدكتوراه الفخرية من جامعة هارفارد بأمريكا (١٩٣٦). وكان كذلك عضواً في جمعيات كثيرة مثل: جمعية الاقتصاد السياسى، وجمعية الإحصاء،

والمتحف الاجتماعي، والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، وجمعية
مازاريك لعلم الاجتماع في تشيكوسلوفاكيا، وجمعية علم الاجتماع بجنيف.
وقد منحته مدينة بيتريس Pietris في رومانيا لقب «مواطن شرف» لما
أسداه إليها من الخدمات في تنظيم المركز الذي أنشأته للأبحاث
الاقتصادية والاجتماعية.

وفي سنة ١٩٤٣ منحت الأكاديمية الفرنسية جائزتها الكبرى وقيمتها
عشرة آلاف فرنك للأستاذ مونييه تقديراً لمجهوداته العلمية ودراساته
لأحوال المستعمرات.

ونحن إذا نظرنا إلى المؤلفات والأبحاث التي كتبها مونييه نجد أنها
تكون سلسلة متصلة الحلقات. ويميزها جميعاً طابع خاص يظهر في رغبة
المؤلف وشدة اهتمامه بتحديد الصلة بين الظاهرة الاقتصادية والبناء
الاجتماعي بوجه عام.

وقد ظهر هذا الاتجاه في كتاباته منذ أول بحث كتبه في سنة ١٩٠٧.
وتعددت بعد ذلك الموضوعات التي كتب فيها وعالجها طوال سبع وثلاثين
سنة دون أن تفقد طابع الوحدة الذي يميزها. ولذلك يعد الأستاذ
في نظر علماء الاجتماع المعاصرين صاحب مدرسة غرضها الأساسي
دراسة الظاهرة الاقتصادية في ضوء علاقتها بالبيئة العامة وربطها بظروف
الزمان والمكان مع مراعاة الدقة العلمية في الوصف والاهتمام بالفسير القائم
على المشاهدات الحسية. ذلك كان غرض رنيه مونييه العلمي الذي كرس
له حياته وعالجها في مجموعة ضخمة من المؤلفات والمقالات. وقد كان أبعد

الناس عن علماء الاجتماع الذين يدرسون الظواهر الاجتماعية «من منازلهم». فسافر وشاهد ودون ملاحظاته واستخلص منها المادة العلمية وكان يهتم دائما بتعليم تلاميذه طريقة البحث ودراسة الوثائق. وحين كان مونييه ينصرف إلى دراسة بعض نواحي الحياة الاجتماعية في المستعمرات كان يحاول جهد الطاقة الابتعاد عن الطريقة التي كان يتبعها غالبا علماء «الإثنولوجيا» وهي دراسة أحوال السكان الأصليين وعاداتهم كما لو كانوا منفصلين تمام الانفصال عن العالم الخارجي. والحقيقة التي لا جدال فيها أن السكان الأصليين اتصلوا بالبيض منذ أزمنة بعيدة. والدراسة التي تعبر عن هذه الحقيقة هي دراسة علاقاتهم الإنسانية وكفاحهم ومجهوداتهم المشتركة والعوامل النفسية التي تؤثر فيهم. وقد أوضح مونييه وجهة النظر هذه في المجلدات الثلاثة التي كتبها بعنوان «علم الاجتماع الخاص بشؤون المستعمرات Sociologie Coloniale». وأصبح هذا الكتاب أحد المراجع الهامة التي تدرس في كثير من جامعات العالم التي تهتم بالشؤون الاستعمارية. وقد قال أحد العلماء المعاصرين في تقريره هذا الكتاب العلمي الفذ. «إن هذا أول مجهود علمي لمحاولة دراسة النظم الاجتماعية في المستعمرات يقوم على التحليل الدقيق والبحث المنهجي. ويسجل هذا الكتاب تاريخا هاما في سجل الدراسات الاجتماعية».

وعندما منحت جامعة هارفارد لقب «الدكتوراه» الفخرية لمونييه وصفته بأنه «العالم الذي ساهم بأعظم نصيب في تقدم معرفتنا بوظيفة النظم الاجتماعية الأساسية ووجه الأبحاث الهامة التي أدت إلى إلزامنا بالقوانين التي تسيطر على حياة الشعوب الفطرية في المستعمرات الفرنسية». وقد

وصل مونييه حقاً من أبحاثه الى الكشف عن ظواهر جديدة كما وصف لنا عادات واصطلاحات لم يفتن لها العلماء من قبله .



والكتاب الذى تقدمه اليوم لقراء العربية يعطينا فكرة واضحة - وإن كانت موجزة - عن المباحث التى يخوض فيها علم الاجتماع بالمعنى العلمى لهذه الكلمة . ولا شك أننا فى مصر فى أشد الحاجة لكثير من الكتب المترجمة أو المؤلفة التى تحدد مرأى ذلك العلم الناشئ وتوضح أغراضه وتقضى على كثير من الغموض الذى يعلق بأذهان الجمهور فيما يتعلق بمسائله .

يدرس علم الاجتماع الظم الانسانية والظواهر الاجتماعية التى تنشأ عن حياة الإنسان داخل نطاق المجتمع دراسة علمية بنفس الطريقة التى يدرس بها أى علم آخر من العلوم الانسانية أو الطبيعية موضوعه الخاص . فالظواهر التى تتكون منها الحياة الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة وتسير حسب نظام ثابت كالظواهر الطبيعية سواء بسواء فنحن لانستطيع أن نبذلها أو نعدلها حسب أهوائنا . فيجب إذاً أن ننصرف إلى دراستها دراسة موضوعية مقارنة لتعرف على حقيقتها . فان هذه الدراسة هى التى تعيننا فى المستقبل - أى بعد أن نستكمل البحث ووضع النظريات - على تلمس وجوه الإصلاح .

مهمة العالم الاجتماعى تنحصر إذن فى دراسة وبحث الأنواع أو النماذج المختلفة Types من النظم والعادات الجمعية التى تتبلور فى شكل قوانين أو شعائر أو اصطلاحات، والوصول عن طريق هذه الدراسة إلى نتائج علمية

وقوانين ثابتة. فالعالم الاجتماعي يدرس ويبحث ليقرر ولكي يصل إلى معلومات جديدة عن المجتمعات أو عن الظواهر الاجتماعية التي يدرسها. ولا شأن له باتاً بالحكم على الأشياء وتعيين وجوه الإصلاح خصوصاً في المرحلة الأولى التي يحتاج فيها إلى التكوين ووضع النظريات.

وعلاج المشاكل الاجتماعية هو أول ما يتطرق إلى ذهن المرء عندما يذكر علم الاجتماع. والواقع أن هناك فئة من العلماء وعلى الأخص في أمريكا حيث يتجه البحث وجهة عملية صرفة. توجه جل اهتمامها إلى هذه الناحية دون غيرها. ونحن لا ننكر أن دراسة الأمراض الاجتماعية ومحاولة علاجها تدخل في اختصاص علم الاجتماع من الناحية التطبيقية. ولكن من الخطأ أن نقصر مدلول علم الاجتماع على دراسة تلك المشاكل. بل إن دراسة تلك المشاكل العملية قبل وضع أسس العلم النظرية لما يتنافى مع الوضع المنطقي للأشياء.

فالواجب إذن أن نفصل بين وجهة النظر الذاتية Subjective ووجهة النظر الموضوعية objective بحيث نتجه أولاً إلى بحث الأشياء بحثاً موضوعياً لا تدخل للعاطفة ولا للأهواء الشخصية فيه. فإذا ما استوفينا البحث وتكونت لدينا فكرة واضحة عن الأشياء من حيث هي أمكننا بعد ذلك أن نخطو خطوة أخرى نحو الإصلاح ونكون في هذه الحالة واثقين بأن مشروعاتنا الإصلاحية قائمة على أساس متين وتدعمها دراسة موضوعية مستفيضة تلم بأطراف البحث من جميع نواحيه. يجب قبل الشروع في الإصلاح أن نصل أولاً إلى استخلاص القوانين التي تنظم حياة المجتمع.

وفكرة الوصول إلى هذه القوانين هي أول خطوة في سبيل البحث العلمي.

* * *

ويرى القارىء في هذا الكتاب مثالا قويا لدراسة علم الاجتماع على أساس علمي . ولا يدعى مؤلفه أنه استوفى جميع مواضيع بحثه وإنما اقتصر على عرض سريع ينير السبيل أمام من يريد أن يتبدى في دراسة علم الاجتماع . وقد قسم الكتاب إلى سبعة فصول يبحث الفصل الأول منها في معنى علم الاجتماع وتحديد مجاله . ويبحث الفصل الثاني في تعريف الظواهر الاجتماعية وتحديد الصفات المميزة لها والجزئات التي تترتب على الخروج عليها . ويبحث الفصلان الثالث والرابع في تقسيم الظواهر الاجتماعية أولا من حيث أشكال التجمع الإنساني وثانيا من حيث الوظائف الهامة التي تترتب على كل حياة اجتماعية . ويستطيع القارىء أن يخرج من قراءة هذين الفصلين بمعلومات مركزة عن نظم الأسرة وعن الطوائف الاجتماعية وعن كيفية معالجة علم الاجتماع للظواهر الاقتصادية وطريقة دراسته للغة والقانون والعقائد الدينية . أما الفصل الخامس فيبحث في طريقة دراسة الظواهر الاجتماعية وهي تنحصر في ثلاثة مراحل : مرحلة الوصف ومرحلة المقارنة ومرحلة التفسير . وقد ذكر المؤلف في كثير من المناسبات أن هذه المراحل الثلاثة لا بد منها في كل دراسة علمية . أما الفصلان السادس والسابع فقد كرهما المؤلف لتتبع الحلقات التي مر بها علم الاجتماع في تطوره خلال عصور التاريخ . وقد دعمت جميع فصول الكتاب بمراجع

(ى)

قيمة ذكرت في مواضعها في الهوامش ليرجع إليها كل من يريد التعمق والاستزادة من البحث في نقطة خاصة .

* * *

ولم أدر أن يجد طلاب علم الاجتماع في الكليات والمعاهد العالية وكذلك الجمهور المثقف في هذا الكتاب ما يصبون إليه من معلومات واضحة ومبسطة عن هذا العلم تعينهم على فهمه والإقبال عليه . كما أرجو أن أوفق إلى أشباع نهمهم إلى ذلك العلم باخراج مولفات أخرى تكون أكثر تفصيلا في المستقبل القريب إن شاء الله .

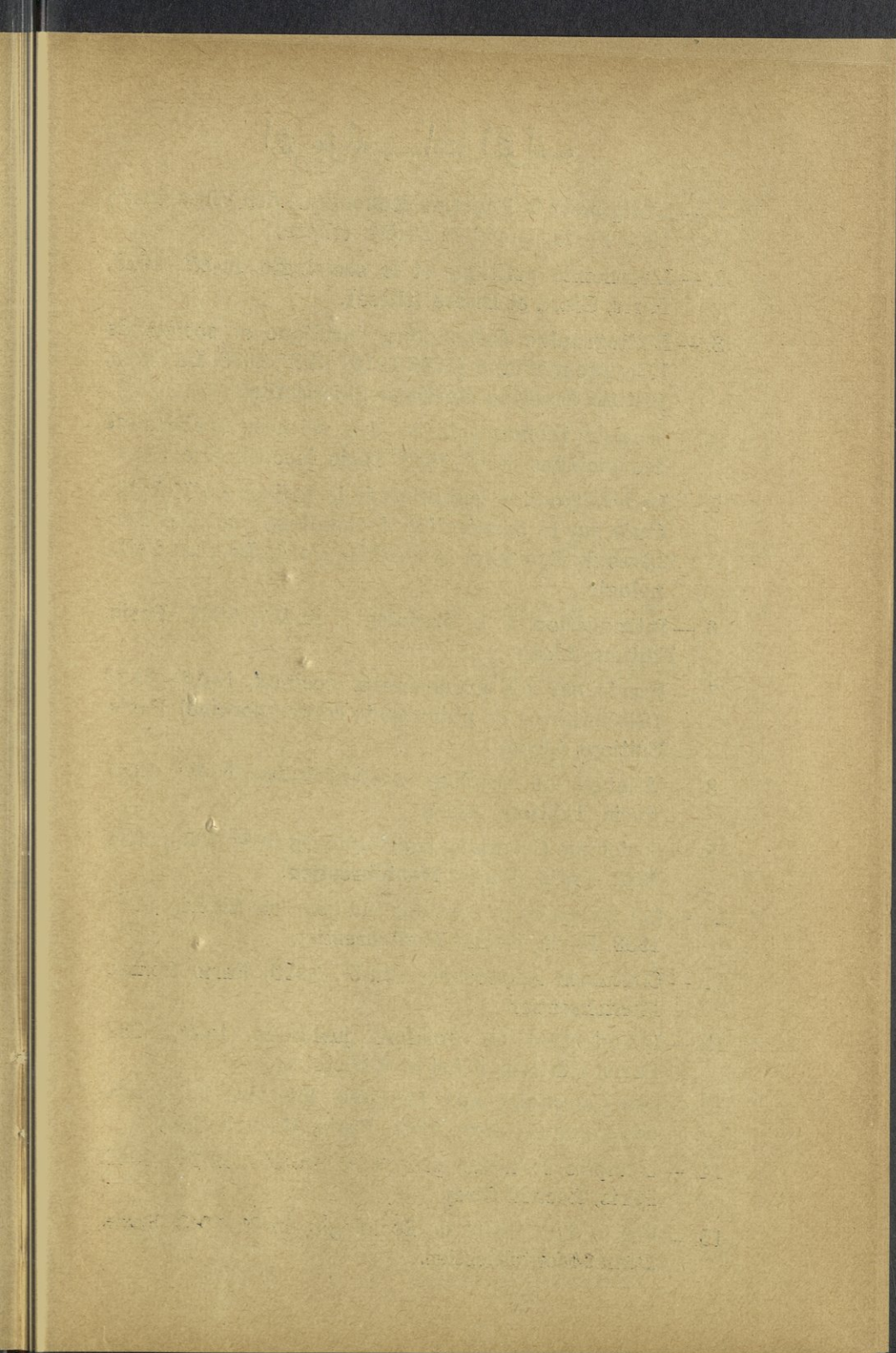
وقفنا الله لما فيه الخير لوطننا العزيز

السيد محمد بروى

ديسمبر سنة ١٩٤٩

أهم مؤلفات المؤلف

1. — L'origine et la Fonction économique des Villes, in-8°, 1909 Paris, Giard et Brière (thèse).
2. — L'économie politique et la sociologie, in-16°, 1910, Paris, Giard et Brière (thèse).
3. — Bibliographie économique, juridique et sociale de l'Egypte moderne (1798-1916) in-8°, 1918, Le Caire, Institut français d'archéologie orientale.
4. — Manuel bibliographique des sciences sociales et économiques, in-8°, 1920, Paris, Recueil Sirey.
5. — La construction collective de la maison en Kabylie, étude sur la coopération économique chez les Berbères du Djurjura, in-4°, 1926, Paris, Institut d'ethnologie.
6. — Introduction à la Sociologie, in-16°, 1929, Paris, Editions Alcan.
7. — Essais sur les groupements sociaux, in-16°, 1930 (Bibliothèque de philosophie contemporaine) Paris, Editions Alcan.
8. — Mélanges de sociologie nord-africaine, in-16°, 1930, Paris, Editions Alcan.
9. — Sociologie Coloniale, trois volumes in-8°, 1932, 1936, 1942, Paris, Domat-Montchrestien.
10. — Loi française et coutume indigène en Algérie, in-8°, 1932, Paris, Domat-Montchrestien.
11. — Coutumes Algériennes, in-8°, 1935, Paris Domat-Montchrestien.
12. — Introduction au Folklore juridique, in-4°, 1938, Paris, Editions d'Art et d'Histoire.
13. — Des Comptoirs aux Empires, Histoire universelle des Colonies, in-8°, 1941, Paris, Recueil Sirey.
14. — L'empire français, propos et projets, in-16°, 1942, Paris, Recueil Sirey.
15. — Précis d'un traité de Sociologie, in-8°, 1943, Paris, Domat-Montchrestien.



مقدمة المؤلف

هذا « مدخل » أو مقدمة لدراسة علم الاجتماع وضعته على شكل كتيب يستطيع القارئ أن يضعه في جيبه أو على المنضدة الصغيرة بجوار سريره نومه . وقد توخيت فيه أن يكون ذا فائدة لطالب العلم ومحِب المعرفة معاً ، فوضعت فيه خلاصة الدروس التي ألقيتها في مقدمة علم الاجتماع خلال أربع سنوات في « مدرسة الدراسات العليا الاجتماعية » بباريس .

وسيجد فيه القارئ الخطوط الأساسية التي تحدد مجال ذلك العلم وترسم طرق البحث فيه بما فيها من منعطفات ونقط اتصال بعلم آخرى . فهو بمثابة دليل لمن يريد أن يقوم بسياحة في محيط العالم الاجتماعي لكشف مجاهله في سبعة أيام ، ولمن يريد أن يتعمق في البحث أن ينظر في الهوامش حيث يجد من المراجع ما يشبع نهمه . وقد عنيت باختيار هذه المراجع من مؤلف آخر لى أكبر حجماً (١) ووضعتها في هذا الكتيب الصغير لتكون تمهيداً لدراسة أوسع نطاقاً .

وقد حاولت في الفصلين السادس والسابع أن أبين أن علم الاجتماع ليس من نتاج وقتنا الحاضر . وإذا كان تاريخه كعلم لا يرجع إلى عهد بعيد فقد مر قبل ذلك بعهود يصح تسميتها « ما قبل تاريخ علم الاجتماع » . وقد أشرت في تتبعي لخطوات تقدم ذلك العلم إلى المؤلفات التي جمعت المواد

ملاحظة للمترجم :

(١) يشير المؤلف إلى كتابه الذي يحتوي مجموعة ضخمة من المراجع :

Manuel Bibliographique des sciences sociales et économiques,
in-8o., 1920.

الأساسية وإلى المصادر الكبرى التي احتوت على أهم الآراء . ويعد هذان
الفصلان بمثابة مجموعة من أدوات البحث والوثائق في علم الاجتماع .
وإذا كان هذا الكتاب لا يسمح إلا بنجولة سريعة فلهتماريء مطلق
الحرية في أن يقف عند أى نقطة يحلو له الوقوف عندها ليتعمق في البحث
مستعيناً بما أوردناه من المراجع . وله أن يجعل من نفسه مستكشفاً بدل أن
يعبر طريقه كسائح .

Fontvielle-en-Provence

قرية في جنوب فرنسا

أول يناير سنة ١٩٢٩

الفصل الأول

معنى علم الاجتماع

استعملت كلمة « اجتماع Sociologie » منذ عهد ليس ببعيد فقد صاغها أو جست كومت من كلمة لاتينية وكلمة يونانية حوالى سنة ١٨٣٠. ففى لاذن كلمة نابية عن الأوضاع لأنها لم تشتق كالعادة عن أصلين يونانيين كما هو الحال فى كلمة Biologie (علم الحياة) وكلمة psychologie (علم النفس) . إذ تبدىء باللاتينية وتنتهى باليونانية . ولكن بالرغم من ذلك فقد شاع استعمالها واعترف الجميع بها . وسرى أنه من الصعب أن نستعيض عن هذه الكلمة بكلمة أكثر ملاءمة منها (١) .

ومن المناسب - حسب ما أعتقد - أن نبدأ فى هذا الفصل بتعريف علم الاجتماع ، ثم نحدد مجال هذا العلم ، ونشرح أخيراً «مدلول» هذه الكلمة

١ - تعريف علم الاجتماع

قيل عن علم الاجتماع إنه « العلم الذى يدرس المجتمعات الإنسانية » . وقد عرفه ليتريه Littré فى قاموسه بأنه « علم تقدم المجتمعات الإنسانية » . أما كلمة « علم Science » فانها أو على الأقل كانت فى ذلك الحين سابقة لاوانها .

(١) أنظر فى تاريخ هذه الكلمة مقال برانفورد عن أصل واستخدام كلمة « اجتماع » .

V. Branford; *On the origins and use of the word «Sociology»*;
American Journal of Sociology, IX, P. 145 seq., 1903.

وأنظر أيضاً :

Sociological papers de la Sociological Society de Londres,
P. 1 seq., 1905.

وأما عن كلمة « *developpement* » فإنها تعبر أو يصح أن تعبر عن الفلسفة المتفائلة التي تعتق مبدأ التقدم . فهذا التعريف يذهب بنا إلى ناحية الفلسفة المتأثرة بالمذهب الوضعي لا إلى ناحية العلم الوضعي . وإذا كنا نريد حتماً أن نقبس كلمة « علم » فلا بد أن نقصد بذلك أن علم الاجتماع يقصر بحثه على تأمل الظواهر الكائنة بالفعل أو التي كانت في الماضي وليس له أن يتكهن بما كان يصح أن يكون أو يقترح ما يجب أن يكون . وعلى ذلك فدراسة المجتمعات يجب أن تسير على منهج يماثل المنهج الذي تخضع له العلوم الطبيعية والعلوم الحيوية ويمكن حينئذ أن ينظر إليه على أنه « التاريخ الطبيعي لاشكال التجمع الإنساني » ويجب أن يظهر ذلك الاتجاه العلمي واضحاً في تعريفه .

هاكم إذن التعريف الذي يخيّل إلى أنه مناسباً لتأكيد الصفة « العلمية » أو « الوضعية » التي يجب أن تقترن بدراسة المجتمعات : فأنا أطلق لاسم « علم الاجتماع » على الدراسة الوصفية ، المقارنة ، التفسيرية للمجتمعات الانسانية حسب ما تسمح به مشاهدتها في الزمان والمكان (١) فموضوع العلم الحقيقي الذي يقوم بدراسة المجتمعات يجب أن ينصب على الواقع في الحاضر والماضي لا على المثالي أو الممكن . يجب أن نفهم ذلك العلم على أنه دراسة حسية ، تاريخية وجغرافية ، للأراء والأفعال التي تصدر عن بني الإنسان مجتمعين . وقد تعمدت أن أكتب كلمة « مجتمعات » في صيغة الجمع لوضح هذه الحقيقة . فقد كان يحلو للناس قديماً أن يتكلموا ويتناقشوا في قوانين

(١) وقد عبرت عن هذه الفكرة لأول مرة في الدرس الافتتاحي لسلسلة المحاضرات التي ألقيتها عن دراسة علم الاجتماع في الجزائر وهو مطبوع بعنوان :

Leçon d'Ouverture d'un cours de Sociologie algérienne,
Hespéris (Rabat), P. 93-107, 1922.

٥

« المجتمع » بوجه عام وكانوا ينشئون النظريات والمذاهب الفلسفية عن فكرة المجتمع فكانت آراؤهم آراء مجردة قائمة على الخيال وليست دراسة وصفية حسية . وكانوا ينشئون المذاهب ويضعون القواعد متحللين من قيود الزمان والمكان . ولكننا حين نقول « المجتمعات » بصيغة الجمع فاننا نعبر عن رغبتنا في دراسة أشكال التجمع الانساني دون أن نغفل ما بينها من اختلافات وما تكون عليه من درجة التركيب . ومعنى ذلك أننا نرغب في دراستها في حالتها الحقيقية الواقعية . فصيغة الجمع أو المفرد في موضوع كوضوعنا هذا لها دلالتها . ولكن لماذا نصف دراستنا هذه لعلم الاجتماع بصفات ثلاثة : الوصف والمقارنة والتفسير ؟ ذلك لان هذه الصفات الثلاثة هي التي تحدد روح العلم ومنهجه . فالعلوم الطبيعية أو العلوم التي تعتمد على المشاهدة تهدف أولاً إلى وصف الأشياء ثم إلى مقارنتها أو تصنيفها ثم يعتمد أخيراً إلى تفسير الظواهر أو تأويلها . فالطريقة التي يتبعها أى عالم يدرس الظواهر الطبيعية هي أن يصف أولاً كل موضوع من مواضيع بحثه على حدة ثم يحاول أن يصنف هذه الموضوعات حسب أوجه الشبه أو الاختلاف وذلك بالتقريب أو المقابلة بين ما يلاحظه من خواصها ثم يعتمد أخيراً إلى تعليل هذا التشابه أو الاختلاف وبالمثل يجب أن تقوم العلوم الانسانية وبخاصة العلم الذى يدرس الانسان فى المجتمع على هذه الطريقة فيعى بوصف ومقارنة وتفسير الظواهر الانسانية وعلى الخصوص الظواهر التى تنبعث من الحياة داخل نطاق الجماعة . ملاحظة وتقريب وتعليل - مشاهدة وتقرير وتفسير : مجموعتان متخصصتان لنا فى كلمات ثلاثة الغرض من أى دراسة علمية . وكل علم يؤدى فى النهاية إلى مجموعة مركزة من الظواهر الموضحة بأسبابها . وسوف نرى أن تطبيق هذه العمليات الثلاثة على علم الاجتماع يتيح له الفرصة للتميز من تلك الآراء النظرية التى كانت تثار حول الانسان والتى كانت تستخدم غايات ومطامع لاشان لنا بها الآن .

ونحن حين نفهم علم الاجتماع على أنه وصف ومقارنة وتفسير للظواهر التي تتألف منها حياة المجتمع فالتوافق طبعاً على أن نعده فرعاً من علم الإنسان الوضعي أو الانتروبولوجيا بمعناه المعروف اليوم لا بحسب المعنى الذي ورد في فلسفة كانت. هذا العلم الإنساني يتكون من ثلاثة أجزاء يعتمد كل منها على الآخر وترتب في تدرج ونظام رسم لنا أوجست كومت خطوطه الأساسية. فهناك أولاً دراسة الإنسان الطبيعي أو البيولوجيا الإنسانية ونستطيع أن نسميها «الانتروبولوجيا الطبيعية» وهناك بعد ذلك دراسة الإنسان النفسي (السيكولوجي) أو علم النفس الإنساني ونستطيع أن نسميه «الانتروبولوجيا السيكلوجية». وهناك أخيراً دراسة الإنسان الاجتماعي أو علم الاجتماع الإنساني ونستطيع أن نسميه «الانتروبولوجيا الاجتماعية» (١)

٢ - مجال علم الاجتماع

رأينا بما تقدم أن علم الاجتماع قد وضع في قمة الدراسات الإنسانية ويتعين علينا بعد ذلك أن نحدد مجال ذلك العلم الذي يبحث في حياة الإنسان داخل نطاق المجتمع وقد أثير كثير من الجدل والنقاش حول سعة هذا المجال وتحديد نطاقه. فمالك رأي يميل نحو تضيق ذلك المجال وهناك رأي معارض يميل نحو توسيعه إلى أقصى الحدود.

أما النظرية المضيقية La thèse restrictive فتري أن الحياة في المجتمع ليست إلا ظاهرة ثانوية في النشاط الإنساني وأنها ليست من جوهر الإنسان

(١) يتفق الأستاذ رادكليف براون مع المؤلف على تسمية علم الاجتماع المقارن بالأنثروبولوجيا الاجتماعية وإن تكن هذه الأخيرة في نظره تعني بصفة خاصة بدراسة المجتمعات البدائية

(ملاحظة المترجم)

فليس من الصفات الأساسية التي تميز طبيعة الإنسان أن يعيش دائماً في جماعة فالإنسان قبل كل شيء ليس إلا فرداً . وإذا أردنا أن نعرف الدوافع الأساسية لسلوكه فعلياً أن نبحث عنها في داخلية نفسه ، في شعوره أو في لا شعوره . ومن الممكن أن نتصور الإنسان في حالة العزلة فيجب إذن أن نضع دراسته كفرد وحيد في المكان الأول . وبناء على ذلك يمكن تفسير المجتمع عن طريق الفرد . ولا يعالج علم الاجتماع في هذه الحالة السلوك الإنساني بصفة أساسية بل بصفة ثانوية أو عن طريق العرض . وهو يحتل نتيجة لذلك مكاناً ثانوياً إذ لما كانت المصالح والعواطف - وهي متشابهة عند جميع الكائنات الإنسانية - هي التي تسيطر على الحياة الاجتماعية فإن علم النفس يجب أن يسير في الطبيعة أمام علم الاجتماع .

ولا تزال هذه الفكرة شائعة جداً إلى يومنا هذا . وهي تفسر لنا المحاولات العديدة التي حاولت لرسم صورة نفسية لحياة إنسان منفرداً . فنذ أواخر القرن الثاني عشر المسيحي نشر فيلسوف عربي يدعى ابن طفيل قصة بعنوان « حي بن يقظان » حاول أن يبين فيها التطور العقلي لإنسان يعيش وحيداً لا تربطه أية علاقة بالمجتمع . وقد ترجم هذه القصة إلى اللاتينية بوكوك Pococke في سنة ١٦٧١ تحت عنوان « الفيلسوف المعلم لنفسه » Philosophus autodidactus . ولا شك أن هذه القصة كانت من المصادر التي استقى منها ديفو Defoe عناصر قصته المشهورة « روبنسن كروزو » التي نشرت في سنة ١٧٢٠ . وقد انصرف كثير من كتاب القرن الثامن عشر إلى معالجة مثل هذه الموضوعات وكان أكثرهم انطلاقا في هذا الطريق المؤلف المغمور جاسبار دي بوريو Gaspard de Beurieux الذي نشر في سنة ١٧٦٤ قصة بعنوان « تليد الطبيعة » . نعم تليد الطبيعة لا تليد المجتمع فإن أمثال هذه القصص والمقالات كانت تعالج دائماً حياة كائن منفرد يستطيع أن يقرأ بنفسه دون

أى تعليم ودون أية وساطة في « الكتاب الأكبر » الذى تفتحه الطبيعة أمام ناظرية . فهو يكون نفسه بنفسه دون الاستعانة بأى كائن آخر . وقد كتب تسيرمان Zimmermann كتاباً عن « الوحدة » أشاد فيه بذكر حياة الانفراد . ولا يجب أن نعتقد أن مثل هذه الآراء قد اختفت إلى غير رجعة . فهناك علماء في العصر الحاضر من أمثال تارد وغيره يعتقدون أن الفرد يفسر نفسه بنفسه عن طريق الحاجات والنزوع التى تحتوى عليها طبيعة كل إنسان . وهم يعتقدون أننا نستطيع فهم الإنسان والاحاطة به من جميع نواحيه دون أن تكون هناك حاجة إلى معرفة التأثير الذى يحدثه فيه اختلاطه بالآخرين . وهذا التأثير إن وجد فهو لا يغير من صفاته الذاتية العامة وهى واحدة لا تتأثر لا بالزمان ولا بالمكان فهذا التأثير الخارجى إذن ليس إلا شيئاً من نوع الظواهر الاضافية epiphénomène .

ولكن هذا رأى قد تهدم من أساسه منذ وقت بعيد . وهل بنا حاجة لأن نعيد على الاسماع ما قاله أرسطو من أن الكائن الإنسانى حيوان اجتماعى Zoon politikon وأنه كان يعنى بذلك أن الميل إلى العيش داخل نطاق الجماعة صفة جوهرية وعنصر أبدي تتميز بهما الطبيعة الإنسانية ؟ ومن جاءوا بعده وتأثروا بفكرته هذه الفيلسوف العربى ابن خلدون الذى عاش في القرن الرابع عشر فلقد أبان في قوة في كتابه عن « تاريخ البربر » ما يتعلق بالحياة الاجتماعية من صفات أساسية وجوهرية . وأثبت بذلك أن علم الاجتماع علم طبيعى لا يقل شأناً في أهميته علم الحياة (البيولوجيا) (١)

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن ابن خلدون : الآراء الاجتماعية لفيلسوف

عربى في القرن الرابع عشر =

Les idées Sociologiques d'un philosophe arabe au XIVe. siècle;
dans l'Egypte contemporaine, Le Caire 1917.

وقد توطدت دعائم هذه الفكرة شيئاً فشيئاً حتى أصبحت على حد قول اسبيناس Espinas القاعدة الحقيقية لكل علم يبحث في الظواهر الاجتماعية . والمبشرون الحقيقيون لعلم الاجتماع ، ونضع في المقام الأول منهم فرجوسون Ferguson (١) هم أولئك الذين اقتنعوا بأن الإنسان لا يفهم على حقيقته إلا في ضوء المؤثرات التي تقع عليه من المجتمع . وليس هناك أى مبرر للاعتقاد بأن الحياة الاجتماعية صفة عارضة وليست جوهرية في تحديد « السلوك » الإنسانى . فالاجتماع إذن هو العلم الذى يجب ان يتوج هامة العلوم الإنسانية .

ننتقل الآن إلى الكلام عن النظرية الموسعة La thèse extensive التى تميل على العكس من سابقتها إلى توسيع مجال « المملكة الاجتماعية » إلى أقصى الحدود . إذ يعتقد أصحاب هذه النظرية أن الحياة الجمعية ليست صفة لازمة للإنسان وحده بل أنها أيضاً من الصفات اللازمة للحيوانات أو على الأقل لكثير منها . فيجب إذن أن ندخل فى مجال علم الاجتماع عرضاً شاملاً « للمجتمعات الحيوانية » فيتسع بذلك أمامنا مجال المقارنة . ألم يقارن Varron فى العصر الرومانى بين مستعمرات الرجال وبين خلايا النحل ؟ أو لم يحاول لوسيان Lucien فى عهد الإغريق أن يقرب بين المدائن القديمة وبين « جمهوريات النمل » ؟ لقد أخذت هذه الفكرة تشق طريقها وسط الجدل الذى ثار حول مسألة « الروح عند الحيوانات » ونأسس بالفعل فى

== وقد نشر البحث قبل ذلك فى شيء من الاختلاف فى مجلة

La Revue internationale de Sociologie, 1913.

وقد انتقلت فكرة أرسطو هذه عن أهمية الحياة فى المجتمع إلى الفلسفة العبرية . راجع كتاب ابن ميمون « دليل الحائرين » .

Maimonide, Le guide des égarés, trad. Munk. II, chap. XL.

(١) أنظر فيما بعد الفصل السادس .

القرن الثامن عشر فرع من علم الاجتماع خاص بدراسة المجتمعات الحيوانية
 فنشر جورج لوروا Georges Le Roy ملازم الصيد في حدائق فرساي
 « رسائل عن الحيوانات » ١٧٦٢ - ١٧٨١ وضمنها نتائج مستفيضة عن
 ملاحظاته الدقيقة لغريزة الحيوانات الاجتماعية. وجاء بعده ديون دى نيمور
 Dupont de Nemours فألقى أمام المجمع العلمي بحثين أكد فيهما وبرهن
 بالأدلة على « غريزة التجمع » عند الحيوانات حتى المتوحش والمفترس منها (١)
 وقد كان ألفرد أسبيناس أول من فتح الطريق أمام الأبحاث الجديدة
 في هذا المجال برسائله التي قدمها لنيل الدكتوراه عن « المجتمعات الحيوانية »
 ونشرها في سنة ١٨٧٧. وقد كان غرضه من دراسة المجتمعات الحيوانية
 أن يساهم في تدعيم روح البحث الموضوعي عن المجتمعات الإنسانية.
 فالحيوانات، حتى الأنواع الدينية منها، قد عرفت على ما يظهر نظما شبيهة
 بنظام الأسرة ونظام الملكية. وهي قادرة على تبادل المساعدة والتعاون ولها
 طريقها الخاصة في القيام بعمل مشترك. وعن أيدي ذلك من علماء
 البيولوجيا بيريه Perrier، هوسيه Houssay، وبونيه Bonnier، وبوفيه
 Bouvier، رابو Rabaud (٢).

وقد اعترض الكثيرون على النظر إلى أنواع التجمع عند الحيوانات

(١) راجع ما كتبه عن الفرائز الحيوانية :

Sur la sociabilité et la moralité du loup, du renard, du chien
 sauvage....; et sur la moralité..... et les institutions sociales des
 fourmis (reproduits dans sa philosophie de l'Univers, in-8o.,
 P. 252-264, 283-314, an. VII).

لإلقاء نظرة عامة على هذا الموضوع راجع كتاب جيرو

Girod: Les Sociétés chez les animaux in-16, 1891.

وكتاب هاشيه - سوبليه

Hachet-Souplet: Les Sociétés d'animaux, in-16o., 1928.

على أنها « مجتمعات » حقيقية . ولم يكن روسو يطبق الاستماع إلى مثل هذه الآراء لأنها لم تكن تنسجم مع نظريته عن الطيبة المتأصلة في نفس الإنسان والتي أمسكها الله عن الحيوان . على أن هناك من المفكرين المعتدلين من كان يدعو إلى التريث والحذر عند الخوض في هذا الموضوع فلم يرغبوا بتاتاً في تشبيه النظم الإنسانية les institutions بالتصرفات الحيوانية les comportements ومن هؤلاء العالم الاقتصادي آدم سميث والعالمان الاجتماعيان دروكيم وبوجلبيه . فالعرف les usages والعادات les coutumes والقوانين les lois لا تظهر حقيقة إلا عند بنى الإنسان . أما الحيوان فلا يعرف إلا الغرائز والأفعال المنعكسة . ومن علماء التاريخ الطبيعي من يحذر الباحثين من خطر المبالغة في التشبيه بين المجتمعات الحيوانية والمجتمعات الإنسانية . ألم يزعم البعض أن نمو الإنسان يتأثر بالاتحاء tropisme فيميل في اتجاه معين حسب تأثير العوامل الخارجية من ضوء وحرارة الخ...؟ إنهم أرادوا بذلك أن يخضعوا العمليات العليا لتأثير العمليات السفلى .

وليس لى أن أقطع برأى هنا في مثل هذه المسائل . فقد تكتشف في يوم ما ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، خصائص مشتركة تنطبق على كل مجتمع حيواني أو إنساني وسيقع هذا العبء على عاتق علماء البيولوجيا ولكن الوقت لم يحن بعد لذلك . فيجمل بنا أن تقتصر في الوقت الحاضر على دراسة الظواهر الاجتماعية عند الكائنات الإنسانية (١) .

(١) لا أريد أن أناقش هنا المسألة المدرسية عن علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية التي أعتقد أنها ليست إلا فروعاً وتقسيمات منه . فمن المقول ومن المستحسن أن يقصر كل باحث دراسته على ظواهر خاصة ولتكن الظواهر الاقتصادية مثلاً . ولكن يجب أن نعرف جيداً أنه لا يمكن فصل هذه الظواهر عن الظواهر الاجتماعية الأخرى إلا في عالم الخيال والخرافة . فنحن لا نستطيع أن نفهم الظواهر الخاصة إلا إذا أدرجناها في البيئة العامة . وهذا هو القول الفصل في المسألة وكل جدل في هذا المعنى لا يتصل إلا بالماضى .

٢ — تسمية علم الاجتماع

من المسائل التي وضعت على بساط البحث مسألة ما إذا كان من الملائم أن تسمى تلك الدراسة التي تبحث في الاجتماع الإنساني باسم آخر يكون أكثر انطباقاً عليها من الإسم التقليدي. فان كلمة « اجتماع » Sociologie كانت مثاراً لكثير من أنواع الخلط المؤسفة. وكثر استعمالها في موضعها وفي غير موضعها وقبلما تستعمل الان استعمالها الصحيح. فنحن نلصق كلمة « اجتماعي » بكل ما نقول وبكل ما نكتب عن السياسة والأخلاق ونخلط في ثنايا كلمة « اجتماع » بين العلم science والفن L'art ، بين التقرير والتقدير. فنحكم على بعض الأشياء ونحرم أخرى باسم علم الاجتماع. ونلقب بالعلم الاجتماعي كل مثالي، وكل مصلح، وكل نبي. الا يحق لنا بعد كل ذلك أن نبحث عن تسمية أخرى نفصل بها عن هذه الآراء الخيالية دراسة « الظواهر » الاجتماعية التي يحاول العلماء وضع أسسها في عصرنا الحاضر؟ هذه الدراسة إنما هي دراسة تاريخية وجغرافية وليست مطلقاً دراسة ميتافيزيقية أو لاهوتية. فالمسألة ليست بالأمر الهين.

ولقد اقترحت أسماء وأسماء لتحل محل الإسم التقليدي. قال القدماء علم السياسة ولكنهم جمعوا تحت مدلوله بين التقرير والتقدير. ولم يفصلوا بين علم الاجتماع والفلسفة. وهكذا أيضاً فعل أولئك الذين استخدموا كلمة العلوم السياسية Sciences politiques في صيغة الجمع. واستخدمت في ألمانيا كلمة « علوم المالية العامة Sciences camérales » وكلمة « علوم الدولة Sciences d'Etat » ولم يفلح العصر القديم بتاتا في الفصل بين حدود العلم وحدود الفن. واستمر الحال كذلك أيضاً في العصور الوسطى حيث سادت الفوضى في هذه الناحية. فأنت لا تستطيع أن تجد ما تبغيه من من وصف المجتمعات ومقارنتها إلا بين خليط من الأخيلة والتأملات حول

العالم وهذه كلها مؤلفات تتصل بالأخلاق دون أى شيء آخر . ثم ظهرت في العصر الحديث كلمة جديدة هي كلمة : الاقتصاد السياسى . وقد رأى سميت وأتباعه وبصفة خاصة Say وأتباعه أن هذا العلم يجب أن يشتمل على أكبر قدر من الدراسات الوصفية للمجتمعات فى الزمان والمكان . ولكنه إلى جانب ذلك كان يضم بين جوانبه أيضا النظرات التقديرية والمحاولات الإصلاحية للمجتمعات . ثم ظهرت بعد ذلك كلمة « إحصاء » La Statistique وظلت زما طويلا لا تقتصر على الدراسة العددية وحدها بل تشمل إلى جانب ذلك الدراسة الوصفية نفسها وتحليل حياة الشعوب (١) وسترون فيما يلى أنى أجبذ أن ينتهى علم الاجتماع إلى دراسة أحصائية . ولكن علم الإحصاء انحصر فيما بعد مرحلة التكوين فى نطاق ضيق وأصبح لا ينطبق إلا على أحد أشكال الوصف الاجتماعى : أى الشكل الذى يدرس الظواهر من حيث هى أشياء يمكن حصرها وإعطاء بيان عددى عنها .

وما زال مجال الاختيار مفتوحا إلى اليوم بين بعض التعبيرات الأخرى فهناك كلمة « العلوم الأخلاقية » ويرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر حيث نعث عليها فى القاموس الضخم الذى أصدره ج.ب. روبينييه Robinet ويعد تاريخيا أول الموسوعات عن علم الاجتماع (٢) وقد كان كوندورسيه أول من اهتدى فيما أعتمد إلى كلمة « العلم الاجتماعى Science sociale » ثم اقتبس عنه هذا التعبير كل من سبنسر وكارى Carey . وقد كاد هذا

(١) هناك كتاب فى الإحصاء أسدل اليوم عليه ستار النسيان ويعد بحق موسوعة

فى علم الاجتماع وهو كتاب .

P. A. Dufau: Traité de Statistique, ou théorie de l'étude des lois d'après lesquelles se développent les faits sociaux: in-8o., 1840.

(٢) هذا القاموس هو :

Dictionnaire universel des sciences morale, économique, politique et diplomatique, ou bibliothèque de l'homme d'Etat et du citoyen, 30 Vol. in-4o., Londres, 1777-1783.

التعبير أن يصبح أصلح تعبير ينطبق على دراستنا العلمية إلا أنه سرعان ما استعير في نواح أخرى . فاستعمله فورييه Fourier وأتباعه وأساءوا استعماله رغبة منهم في أن يضيفوا الطابع العلمى على نظراتهم الخيالية وتنبؤاتهم الوهمية . ولم يكتب لهذا التعبير البقاء إذ اكتسحته كلمة Sociologie التى اقترحها أو جست كومت . وذاعت هذه الكلمة وانتشرت لافى فرنسا وحدها بل وأيضاً فى البلاد الأجنبية . وعم استعمالها بين الألمان والإيطاليين والانجليز ثم أصبح استعمالها رسمياً فى الولايات المتحدة بعد أن قبلها پاول Powell ، دورسى Dorsey . وقبل Giddings أن يستخدمها بحذر مع إضافة وصف آخر إليها بحيث تصبح Inductive Sociology أى علم الاجتماع الاستقرائى . ولكنه الوحيد الذى ظل يتصرف هذا التصرف وقد اقترح البعض كلمة « Sociétologie » أى علم المجتمعات (للدلالة على أنه العلم الذى يدرس المجتمعات دراسة علمية) . وفكر البعض فى إحياء التعبير القديم الذى ابتدعه سان سيمون وهو « الفسيولوجيا الاجتماعية » . أو التعبير الذى نادى به كيتسليه Quetelet وهو « الطبيعة الاجتماعية » . وقد اخترع الإنجليز أخيراً كلمة الانثروبولوجيا الاجتماعية Social anthropology وكان غرضهم من ذلك بالذات قطع دابر الخلط بين الدراسة الوضعية « والدراسة التقديرية » normative . وتهدف كلمة أنثولوجيا فى فرنسا إلى ما يقرب من هذا المعنى . واعترف أنى شديد الميل إلى هذين التعبيرين الآخرين . ولكن يلوح لى أن لا نصيب لهما من البقاء فى فرنسا . ففى مجال المنافسة تتفوق كلمة « اجتماع » لأنها كلمة مختصرة فليس أمامى إذن إلا أن أحذو حذو جيدنجز Giddings فاحتفظ بهذه الكلمة على أن أدعها بصفة أخرى مسترة جوازا فإذا قلت اختصارا Sociologie وجب على القارئ أن يفهم من ذلك حرفياً Sociologie Comparée أى « علم الاجتماع

المقارن « . ولنا في ذلك أسوة بالتشريع المقارن . فالمقارنة هي العنصر الاساسى فى كل دراسة علمية . وهى تتبع الوصف وتسبق التفسير . ومهمة العلم قبل كل شئ هى أن يقرب ويتقارب بين الظواهر التى تم وصفها من قبل على حدة حتى يستطيع أن يستخلص أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينها وأن يجمعها فى أنواع ومراتب . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة البحث عن أسباب هذا التشابه أو هذا الاختلاف . وتعبير « علم الاجتماع المقارن » يعبر عن كل ذلك باختصار ولذلك فمن الأوفق الإجماع عليه .

الفصل الثاني

تعريف الظواهر الاجتماعية

عندما قلنا إن موضوع علم الاجتماع هو « دراسة المجتمعات » لم نفعل أكثر من أن حددنا مجاله ولا يتم تعريفنا لهذا العلم إلا إذا شرحنا معنى كلمة « مجتمعات » وبيننا نوع الظواهر التي تصادفنا فيها . وهذا هو ما نرجو تحديده في هذا الفصل . فسنبين أـ المجتمعات ليست شيئاً آخر غير مركبات من « الظواهر الاجتماعية des faits sociaux » وأن هذه الظواهر إلهي في الواقع الموضوع الأساسى والغرض الأخير من دراسة علم الاجتماع .

١ - معنى المجتمعات

حقيقة إن المجتمع لا يخرج عن كونه طائفة من الناس مجتمعين أو هو على حد قول سبذر مجموعة من الوحدات الإنسانية . ولكن ذلك لا يعدو أن يكون علامة خارجية . والأفضل لنا أن نقول كما قال منذ قرنين ماندفيل Mandeville الذى وضع كتيباً بعنوان « أسطورة النحل La fable des abeilles » إن كل مجتمع يتضمن نوعاً من التنظيم تحت رقابة سلطة ما . ومعنى ذلك أن العامل الأساسى الذى يصفى على اجتماع الناس بصفة دائمة أو فى مناسبات معينة صفة المجتمع هو اتباعهم لقواعد واصطلاحات واحدة تفرض عليهم عن طريق قوة خارجة عنهم يدينون لها بالخضوع والطاعة . فهناك إذن سلطة autorité تنظم أحوالهم : هى هذه القوة المسيطرة والرغبة العنيدة « le voeu têtue » التى تكلم عنها الشاعر فرلين Verlaine . وليس هناك اليوم من يعتقد - كما اعتقد كثير من الكتاب منذ عهد مونتني Montaigne

أن هناك مجتمعا مهما كان في طور الوحشية أو البداوة قد استطاع أن يعيش بدون قوانين فانه لا يوجد أبداً أو على الأصح لم يوجد أبداً مجتمع « لا شكل له » فلكل مجتمع عاداته المميزة له واصطلاحاته المتفق عليها وقوانينه المرعية. والسلطة أو القوة المسيطرة هي العامل الذي يحقق الوحدة ويضمن البقاء للمجتمعات. ولا شك أن مصادر هذه القوانين وطرق تطبيقها عديدة ومختلفة ويتعين علينا أن نصنفها بعد قليل. وسواء أكانت السلطة تتمثل في النفوذ الذي يتمتع به المسنون والشيوخ أو في الثقة التي يضعها الناس في رؤسائهم أو في قوة القانون أو في ضغط الرأي العام أو في جبرية العادات، فلا يهمننا هنا أن نعرف من أين يأتي الضغط وحسبنا أن نقرر وجوده فالناس حين يجتمعون داخل نطاق المجتمع لا يتمتعون بحريتهم الكاملة. والاصطلاح والعادة كثيرا ما يطغيان على حكم العقل (١) وقد عبر مونتني عن ذلك أصدق تعبير بقوله: « إن قوانين الضمير التي نعتقد أنها وليدة الطبيعة انما تنشأ في الواقع عن العادة. فكل امرئ يعتقد ويقدر في داخلية نفسه الآراء والمعتقدات التي يوافق عليها ويقبلها الناس من حوله. وهو لا يستطيع أن يتخلى عنها دون أن يتناهب القلق كما أنه يشعر حين يلتزمها بالغبطة والسعادة. » فقاعدة الحياة في المجتمع هي الطاعة وما من مجتمع إلا ويشبه في كثير أو قليل نظام الدير. وقد لاحظ تين Taine ذلك ودونه في مذكرات ظلت مدة طويلة دون أن تنشر (٢) فقال إن

(١) يستطيع القارئ أن يستفيد في هذه الناحية بقراءة الفصل الثاني والعشرين من الكتاب الأول من: « محاولات مونتني » *Les Essais*. وهذا الفصل يعالج موضوع العادات « *De la coutume* » ويعني مونتني بهذه الكلمة العادة الشخصية والاصطلاح الجمعي

(٢) أنظر حياة تين ورسائله

H. Taine, *Sa vie et sa correspondance*, in-16o., III, P. 337 et seq., 1905.

الشرط الذى يحقق ظاهرة التجمع « هو كبح النفس عن طريق ذاتي أو عن طريق الغير ». ويمكن تلخيص هذه العبارة في كلمة واحدة : الجبرية La Contrainte . فالتجمع في حاجة دائمة لهذه الجبرية ليتغلب بها على الأنانية والفوضى . ولا بد لتأسيس النظام والاحتفاظ به داخل نطاق المجتمع من أن يقبل الناس ويخضعوا لأنواع الجبر القانونية والفعلية . وقد عبر دروكيم عن ذلك أصدق تعبير حين جعل من الجبرية التي تضغط على الفرد العلامة المميزة والصفة التابعة لكل جماعة انسانية . وإنى شخصيا أفضل كلمة انسلطة متبعارأى الشيخ ماندفيل فانها أقل شدة ويمكن أن تكون أكثر قبولا . فهي تعبر عن الحرج الذى لا نستطيع تحديده في حالة الإخلال بما يرسمه العرف والأوضاع الاجتماعية كما أنها تعبر أيضا عن قوة القانون الشديدة الوطأة .

يمكن ان ان نعرف المجتمع بأنه : مجموعة من الناس يخضعون لسلطة واحدة وهناك تعريف آخر يتفرع عنه وهو : مجموعة من الناس يسيرون وفق نظم واصطلاحات usages واحدة . فمجرد أن تنشأ بين الناس قواعد مشتركة ويتبعوا طرائق واحدة وتوجد بينهم وحدة في التفكير والعمل فانهم يكونون مجتمعا .

هذه الاصطلاحات المشتركة التي تتكرر وتتضاعف والتي تعبر عن السلطة المفروضة أو المقبولة عن طيب خاطر هي بالضبط ما نسميه « بالظواهر الاجتماعية » . فالتجمع هو الوسط المختار الذي تنشأ فيه الظواهر الاجتماعية .

٢ — معنى الظواهر الاجتماعية

نستطيع إذن ان نطلق اسم « الظواهر الاجتماعية » على المظهر المتحد في الأفكار وفي طريقة الحياة الذي ينشأ بين الناس مجتمعين . ويمكن استعمال

كلمة أخرى أكثر دقة فنقول إن « الظواهر الاجتماعية هي - التوافق *la conformité* الذي يظهر في السلوك » والتصرفات « بين طوائف الناس المختلفة (١) ». ومعنى ذلك - كما بيده تارد Tarde بوضوح - أن التكرار أساس كل ما هو اجتماعي وقد كتبت منذ عهد بعيد (٢) « أن الحدث الاجتماعي لا يمكن أن يكون حدثاً مبتكراً وإنما هو حدث متكرر. وحتى إذا قام بهذا الحدث فرد واحد فإنه يكون قد استخلص عناصره من الوسط الذي يعيش فيه أو من أفراد آخرين. وهو حين يقوم به يلتزم قاعدة ثابتة تعوقه عن أداء حركاته بحرية مطلقة. ولذلك فإن الاختراع الفردي لا يعد ظاهرة اجتماعية وهو لا يصبح كذلك إلا عن طريق التكرار. فالصفة الأساسية إذن للظواهر الاجتماعية هي أنها عامة *des faits généraux* أو هي قواعد للسلوك مشتركة بين عدد وفير من الأفراد. ولا يشترط في الظواهر الاجتماعية أن يقوم الناس بأدائها كمجموعة وإنما يشترط فقط لوجودها أن يكون هناك مجموعة. فالعقد والشعيرة الدينية ظواهر اجتماعية إذ يتولد عنهما شعائر أخرى وعقود أخرى وهما بمثابة نموذج أو أصل تستخرج منه نسخ عديدة ».

نقول إن الظاهرة الاجتماعية ظاهرة عامة: فاتفق الناس في الزى واتباعهم لطرق واحدة في العمل واتفقهم على ما يفضلون وما يندبون كل هذه ظواهر اجتماعية. فالاجتماعي والشخصي على طرفي نقيض وهما يتعارضان كما يتعارض العام والخاص. وصفة العمومية والذويوع صفة جوهرية في

(١) كلمة *Conformisme* التي تستخدم أحيانا في هذا الغرض كلمة نائية.

(٢) أنظر كتاب المؤلف عن: الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع.

R. Maunier: *L'économie politique et la sociologie*, in-160.,

P. 4, 1910.

تحديد طبيعة الظاهرة الاجتماعية . والحياة في المجتمع لا تيسر إلا بشرط أن يتنازل الأفراد كل عن وجهة نظره الخاصة . وأنت لا تكون اجتماعياً أو ذا قابلية للحياة المجتمع « Sociable » إلا إذا كنت طيعاً سلس القياد .

وهناك نتيجة كبرى تترتب على ذلك : فالظواهر الاجتماعية يجب أن تكون قابلة للعد . إذ أن تكرارها وتعددتها معناه أن لها صفة عددية أو إحصائية . وكلما زاد تكرار الظواهر الاجتماعية كلما كان ذلك دليلاً على قوة الاندماج في الحياة المشتركة وتعبيراً واضحاً عن الخضوع لسلطة المجتمع . فالقابلية الاجتماعية تزداد كلما ازداد الدور الذي يلعبه القانون المسمى بـ « قانون الأعداد الكبيرة » La loi de grands nombres . وهكذا نرى أنه لا بد لعلم الاجتماع من أن يستعين إلى حد كبير بعلم الإحصاء .

وقد عبر الأستاذان موس Mauss وفوكونه Fauconnet بطريقة أخرى عن هذه الفكرة فيما كتبه تحت مادة « اجتماع » في الموسوعة الكبرى ويعد هذا المقال مرجعاً أساسياً من مراجع علم الاجتماع فقد ذكر أن الظواهر الاجتماعية عادات جمعية *habitudes collectives* تراعى بين الناس ويظهر في هذا التعبير الميل إلى الحكم عن مصدر أو سبب التوافق الذي يلاحظ بين الكائنات الانسانية . ولكن سواء أكان هذا المصدر في الغريزة العمياء أو في العادة اللا شعورية أو في التقليد الذي يطاع ويحترم أو في الحكم الصادر عن التروى فكل هذه المصادر تدخل في موضوع بحثنا . ولذلك يستحسن أن نقول : اصطلاح *usage* - طريقة *manière, façon* - هو *guise* - مسلك عملي *pratique* - عرف *coutume* - تقليد *tradition* قاعدة *régle* - قانون *loi* : كل هذه كلمات لا تستدعي الرجوع إلى علم الحياة أو علم النفس . وكلمة اصطلاح *usage* فيما اعتقد أقربها جميعاً إلى الأفهام . ويحسن بنا أن نتحرز بالمثل من التعريف الذي عرف به پاول J. W. Powell « علم النظم La science des institutions »

فالنظم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة اصطلاحات تم لها التقرير والتنظيم ولا يمكن أن نقصر عليها موضوع علم الاجتماع . فهناك اصطلاحات أخرى عامة كالشعائر الدينية والتبارات الخلقية ومراسم « الانيكيت » وقد لا تتخذ هذه الاصطلاحات في غالب الأحيان شكلا محدداً أو قد لا تصاغ في صيغة قانونية وتعلن بين الجميع بصفة رسمية أو قد لا تتخذ المظهر النهائي الثابت ومع ذلك فإن هذه الاصطلاحات التي يصطلح عليها الناس وتفهّم بأوسع معانيها هي الموضوع الحقيقي لعلم الاجتماع .

والخلاصة أننا إذا قلنا مجتمع فانما نقول توافق ، واشترك ، وسلطة (١)

ويجب أن نلاحظ جيداً أن اتفاق الناس أو اشتراكهم في القواعد والاصطلاحات يسير حسب اتجاهات مختلفة . والتوافق يكون إما في الزمان أو في المكان .

فالتوافق في الزمان هو وحدة التقاليد : فالناس يعملون ويفكرون كما كان يعمل ويفكر من يكبرونهم في السن وانتقال الآراء عن طريق التقاليد وعن طريق التربية ظاهرة اجتماعية بطبيعتها . واشترك الأجيال المتعاقبة في المعتقدات وطريقة الحياة واستمرار ذلك خلال الزمن يضمن الاتصال للحياة الجمعية . على أنه يجب علينا أن نقرر أن سلطة التقاليد ليست ولا يجب أن تكون سلطة مطلقة . فلا يوجد مجتمع على حالة واحدة من الوجود . والتوافق يصطبغ دائماً بلون من التنوع . فالتقاليد لا تمنع التطور . وحتى أبسط أنواع الجماعات الانسانية قد مرت بتطورات بل بثورات (٢)

(١) أنظر تحليل هذه المعاني الثلاثة في كتاب مونييه :

Société, c'est conformité, communauté, autorité. Essais sur les groupements sociaux, in-160., Chap. 1er., 1929.

(٢) أنظر كتاب سمنر في تاريخ النظم البدائية :

Sumner Maine, Etudes sur l'histoire des institutions primitives, in-80., P. III et seq., 1880.

روح المحافظة مع القابلية للتطور : هذان هما العاملان الأساسيان في حياة المجتمعات . فيجب إذن أن تظل التقاليد باقية مع شيء من المرونة التي تسمح بالتطور .

ويظهر التوافق من ناحية أخرى بالنسبة للمسكان فيكون حينئذ الاصطلاح بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة أو ما يعبر عنه الفرنسيون بكلمة *la mode* في زمن معين يسير عدد قل أو كثير من الناس وفق طرائق واحدة في مساحات نستطيع تحديدها . فلهجة التخاطب واختيار الزي والذوق في بناء المسكن وتأنيثه والتمسك بمعتقدات خاصة أو الخضوع لآراء متسلطة *préjugés* كل ذلك نستطيع تمييزه داخل نطاقات معينة . وكما أن التوافق ليس مطلقا بالنسبة للزمان فهو أيضا ليس مطلقا بالنسبة للمسكان وإلا فإن الإنسانية جمعاء تصبح جسما واحدا . ولكن الاصطلاحات من شأنها أن تكون محلية بحيث تنحصر داخل حدود تستطيع رسمها . فهناك اصطلاحات خاصة بأقليم معين واصطلاحات تعم في الدولة بأكملها كما أن هناك اصطلاحات عالمية . وقد يضيق الاصطلاح فلا يتعدى نطاق الطائفة المهنية أو نطاق الأسرة فلكل طائفة مهنية ولكل أسرة كما يشاهد كثيرا طريقتها الخاصة في التفكير وفي المعيشة . وهذا القول ينطبق تماما على كل قرية وكل مدينة وكل أمة . كما ينطبق أيضا على مجتمعات الطبقة الراقية والمخافل الخاصة وكلما اتسع نطاق المجتمع ، كلما قل عدد حالات التشابه التام التي نلاحظها فيه ويمكن النظر إلى الجماعات التي تتفق في وحدة الإصلاح والتي تسير وفق تقاليد واحدة وتتحد في المزاج وفي النهج الذي تسير عليه في الحياة

== وأقرأ في التطور الاجتماعي كتاب اجبورن :

W. F. Ogburn, Social change, with respect to culture..., in-160.,

على أن لها حضارة مشتركة (١). وعلى ذلك فالحضارة قبل كل شيء ظاهرة جغرافية تتحدد بالمكان. ونحن نسمع اليوم عن وجود مناطق أو دوائر ثقافية cercles de culture تسود فيها آراء واحدة ووسائل عملية واحدة تجعل من كل منها عالماً منفصلاً. وقد أطلق عالم الأنثولوجيا أدولف باستيان Bastian على ذلك إسم الأقاليم الجغرافية Les provinces géographiques ويعول البعض في وقتنا الحاضر أهمية كبيرة على تحديد هذه الأقاليم (٢) ويسكن من جهتنا على الأقل أن نعترف بوجودها وبأنها تتميز بوضوح تام في مجال العقائد والآراء. ولتذكر دائماً قول بسكال المشهور: « إن ما يعد حقيقة في حدود البرانس قد يعد ضلالاً في ورائها Vérité en deça des Pyrénées, erreur au delà »

وسواء اختص الأمر بتقليد أو بتقليد (محاكاة) وسواء أكان التوافق في الزمان أو في المكان أو فيهما معا فإنه على كل حال ظاهرة تستحق منا أن نقررها لأهميتها والتوافق معناه توافق بين أفراد جماعة واحدة وبالتالي اختلاف diversité من جماعة إلى أخرى. وهذا الاختلاف من مجتمعات إلى

(١) أنظر في المعنى الجوهرى لكلمة حضارة :

Année Sociologique, XII, P. 46-50.

(٢) إقرأ في هذا الموضوع مثلاً كتاب :

Pinard de la Boullaye, L'étude comparée des religions, I, in-8o., P. 396-404, 503, 1922.

حيث تجد ملخصاً للأبحاث لجريبر Graebner ، شميدت W. Schmidt عن الدوائر الثقافية Kulturkreise .

وأقرأ أيضاً بحث شميدت P. Schmidt في ملحق المجلة الأسبوعية الأنثولوجيا

الدينية :

La semaine internationale d'ethnologie religieuse, IVe. session, in-8o., 1927.

آخر هو أول ما يجذب نظر المسافرين أو السائح أو الصحفي فهؤلاء جميعاً لا يسترعى اهتمامهم في الغالب إلا المظهر الخارجي . وقد نعتقد مثلاً أن اختيار الزى يعبر عن حاجة طبيعية صرفة مصدرها الحياء والبحث عن الراحة ومع ذلك فهذا الاختيار إنما هو ظاهرة اجتماعية . فالزى ينتقل بين الناس ويعم بينهم وهو قبل كل شيء أمر يتصل بالعود . وهناك لباس العمل ولباس الحفلات ولباس الحداد كما أن هناك لباساً إقليمياً ولباساً وطنياً . وكل هذه أشياء ينظمها ويصطلح عليها الرأي العام ولا يستطيع الفرد أن يتصرف فيها بحرية مطلقة . وما يصدق على الزى يصدق تقريباً على كل ما يقوم به المرء من أفعال في الحياة . وحتى هندسة البناء نفسها قد تتبع أساليب خاصة بحكم العادة أو التقاليد وقد تكون هذه الأساليب في غالب الأحيان بما لا يتفق مع المناخ أو يخضع لحكم الحاجة . وقد تكون طريقة الطهي محلية أو وطنية ولكنها نادراً ما تكون فردية . وهكذا نستطيع أن نبين حين نتجه من المظاهر الخارجية نحو لب الأشياء أن العادات الخلقية والقانون وحتى المنطق نفسه أشياء يحددها الرأي العام ، ومن الأشياء الواضحة التي لا تحتاج إلى جهد لإثباتها أننا لسنا دائماً أحراراً لا في الصق معتقداتنا بذاتيتنا ولا في أفعالنا ولا في حركاتنا . ونحن لا نستطيع أن نولد أو نموت أو نرث أو نتعاقد أو نتغدى أو نلبس إلا إذا خضعنا في ذلك كله لسلطان القانون أو على الأقل لحكم التقاليد والعرف .

ويمكننا أن نستخلص من كل ذلك أن التوافق وهو الصفة اللازمة للحياة الجمعية يؤثر في الأفراد بطريقتين . فهو أولاً ينظم بينهم العمل ووسائل السلوك وطرائق التصرف وتتصل هذه الأشياء بما يسمى بالنواحي العملية في حياة الإنسان les pratiques . ولكن التوافق ينصب أيضاً على طرق التفكير ووسائل الحكم وطرائق التعقل وهذه تتصل بناحية المعتقدات

les croyances فالتوافق يشمل الافعال وأنواع المعرفة . بل إننا نستطيع القول إن التوافق في المظهر الخارجى يأتي عن طريق التأثير على القوة الداخلية أى النفسية .

فالحياة في المجتمع هي إذن وقبل كل شيء اتفاق في الافعال والافكار ، في وسائل العمل وطرائق المعرفة . هذا الاتفاق ينم دائماً عن وجود نوع من السلطة .

٣ - جزاءات الظواهر الاجتماعية

عرفنا أن فكرة القانون بالمعنى الواسع الذى تكلمنا عنه هى العنصر الاساسى فى الظاهرة الاجتماعية . فما هى إذن قيمة هذا القانون ومدى قوته؟ هذا القهر الاجتماعى الذى يتحمله الافراد طوعا أو كرها كيف يضمن لنفسه قوة النفاذ؟ وهذه السلطة التى يجب أن تسود فى المجتمع كيف تتحقق لها السيادة؟ هل هناك من الجزاءات ما يكفل لها ذلك؟

إن الجزاء الاجتماعى موجود بالفعل وله أشكال متعددة وسوف نحدد الآن مظاهره المختلفة .

من المشاهد أن الظواهر الاجتماعية تختلف من حيث قوة التركيز . فمنها ما أمر به العقيدة ومنها ما يفرضه القانون ومنها ما ينظمه الرأى العام ومنها أخيراً ما تترك فيه الحرية تقريباً ويكفى فيه بمجرد الاقتراح والنصح لا الإلزام . وهكذا نجد أمامنا ثلاث درجات لصفة التوافق بين الظواهر الاجتماعية . وتقع بين هذه الدرجات أشكال من التفاوت البسيط nuances لا حصر لها . فهناك ما يفرض l'imposé وهناك ما يصطلح عليه l'usité وهناك ما يقبل l'accepté وهناك ما يتسامح فيه le toléré . هناك الإلزام وهناك التقاليد وهناك اتجاه الرأى العام . وهذه الأشكال الكبرى تحصر بينها — كما قلنا — عدداً لا حصر له من أشكال التفاوت . والمسافة شاسعة بين ما يفرض وما يمنع ، بين ما يباح وما لا يباح . وتحد حرية المرء كثيراً أو قليلاً بحسب الحالات . هناك جزاءات تضمن تفوق العام على الخاص وإن اختلفت هذه الجزاءات من حيث قوتها وطريقة تطبيقها . وأكد أن اثنين منها أربعة أنواع .

فهناك أولاً الجزء الدينى mystique فى مجتمعات كثيرة يقوم احترام

القانون على العقيدة ومن يتخطى القانون يكون قد اقترف إثماً *un péché-sin* ويتعين على التكفير *l'expiation* عن هذا الإثم. وهو بذلك يكون قد تعرض لغضب الآلهة وفقد طهره وهناءته وأصبح مدنساً وقد يحكم عليه بالطرد من حظيرة المجتمع. فإذا أكل المرء ما حرم عليه من الطعام أو تطلع بصره لما لا يجب عليه أن يراه أو أباح لنفسه الزواج من الأقارب المحارم دخل في عداد الآثمين وأستحق الجزاء الديني وعقاب الآلهة والأرواح. وقد تلاحق هذه الفكرة الشخص وتستحوذ على عقله حتى تدفع به في أحيان كثيرة إلى الانتحار أو إلى الموت فزعاً (١). فان نيمينيس *Néménis* تلاحق من يخرج حرمة القوانين الدينية*.

يأتى بعد ذلك الجزء التشريعي *La sanction juridique*: فالاصطلاحات والأوضاع الاجتماعية غالباً ما تقرر إما عن طريق العرف الشفوى أو عن طريق القانون المكتوب. وخرق ما نص عليه القانون يستدعى توقيع العقوبة القانونية. ويسمى الخروج على القانون في هذه الحالة جريمة أو جنحة *délit* تستوجب عقاباً *punition* أو على الأقل إصلاح ما فسد أو تعويضه *réparation*. ومعنى ذلك في كلا الحالين جزاء مادي يوقع على المعتدى عن طريق تطبيق القانون. وفي قوانيننا الحديثة يفصل بين نوعين من الجرائم لم يكن يفرق بينهما في الماضي. فهناك الجرم الجنائي *délit pénal*

(١) ذكر مارسيل موس *Mauss* حالات غريبة عن: التأثير الطبيعي الذي تحدثه فكرة الموت عن طريق الإيجاء الجمعي. راجع مقاله:

Effet physique chez l'individu de l'idée de mort suggérée par la collectivité; Journal de Psychologie, XXIII, P. 653-669, 15 Juin 1926.

* في الميثولوجيا الإغريقية نيمينيس إلهة الانتقام وتوزيع العبدالة وهي تمثل القانون العادل الذي يحارب كل افراط. (ملاحظة المترجم).

وجزائره العقوبة البدنية أو الغرامة وهناك الجرم المدني *délit civil* وجزائه المطالبة بالإصلاح أو التعويض إذا لحق ضرر بشخص ما من جراء إساءة الغير لاستعمال الحقوق المقررة .

والجزاء القانوني على كل حال وسيلة خارجية لضغط النظم الاجتماعية فالخوف من توقيع العقوبة أو المطالبة بالإصلاح قوة تدفع بالمرء إلى الخضوع للقوانين .

ويأتى بعد ذلك الجزاء الخلقي *Sanction éthique ou morale* : فلا يخلو مجتمع من كثير من القواعد التي لا تخضع لا للعقيدة ولا للقانون : وعدم مراعاة هذه القواعد لا يعد إثماً ولا جريمة ولكنه خطأ خلقي وفيه مساس بالشرف . ويستحق مقترف هذا الخطأ اللوم والتقريع *le blâme* من جانب الرأى العام . فهذا الخطأ لا يستدعى إذن تكفيراً أو عقاباً ولكنه يثير السخط والاستنكار *réprobation* الذى تختلف قوته بحسب الحالات وقد يصل أحياناً إلى حد الاضطهاد *persécution* . ونحن ندرك جيداً أن سلطة هذا الجزاء لا يستهان بها . ونلاحظ جيداً أن فكرة الشرف بين المسلمين فى الجزائر (*nif ou horma*) دافع قوى للتمسك بالآراء والعادات العرفية . والمرء حين لا يراعى القانون الخلقي يفقد شرفه وذلك أخوف ما يخافه الناس . وليس ذلك مظهراً من مظاهر الماضى فان هذه العاطفة مازالت قوية جداً بين الهيئات والتقابات المهنية . والعادة الشائعة فى هذه الأوساط هى التشهير والنبد "*Mise à l'index*" - *au ban* " لكل من يخل بشرف المهنة (١) ومن ذلك نرى أن الجزاء الخلقي قد يكون له أحياناً نتائج مادية . ولكن قسوته الحقيقية قوة ذاتية فمجرد الخوف من احتقار الناس قد يكون أحياناً أقوى من الخوف من القوانين . ويعتقد الذين على الفطرة أى الذين لم يفسدهم زخرف الحضارة أن فقدان الشرف معناه فقدان السعادة . وستظل

(١) سوف نتأكد من قوة العرف والتقاليد فى الطوائف المهنية حين تصفح كتاب مكسيم لوروا :

Maxime Leroy: La coutume ouvrière, 2 Vol., in-8o., 1913.

هذه الفكرة محتفظة بقوتها الذاتية بالرغم من كل شيء . فالنبي الخلقى أكبر عامل على الاحتفاظ بالفضيلة .

وآخر أنواع الجزاءات هو الجزاء التهكمي La Sanctin satirique : وأعنى بهذه التسمية أخف المظاهر التي يعلن بها المجتمع عن سلطته . فهناك كثير من الأوضاع التي قد لا يحترمها الانسان وعلى الأخص في وسائل الحياة المادية دون أن يتعرض بذلك للاتهام بأنه قد أخطأ أو ارتكب جرماً أو اقترف إثماً . ولكن عدم مراعاة هذه الأوضاع قد يعرض المرء للسخرية le ridicule فانفراد المرء بطريقة خاصة ورغبته في الظهور بظهر غير مألوف يوصانه بالوقاحة والجرأة ويعرضانه للتهكم والاستهزاء به ومعناه الانحراف عن المألوف نحو الشذوذ والتبذل . ولكن ذلك الشذوذ لا يستدعى تكفيراً أو عقاباً ولا يجر على صاحبه حتى مجرد السخط . وإنما يثير فقط نوعاً من الامتعاض والاستهجان depreciation . فهناك من الأفعال ما يعرض للسخرية ويفتح مجالاً للقد والتهمك إذا وصل إلى حد المبالغة : من ذلك الاندفاع في تيار (الموضة) وحب الظهور Snobisme والتحذلق في اختيار الألفاظ أو الحركات (١) . ولكل طائفة قواعد التأدب التي تراعى فيها أو ما يسمونه « الإتيكيت » . فالقواعد التي تتبع في محافل الملوك غير القواعد التي تتبع بين أفراد الطبقة البورجوازية . وقد ألف بعضهم كتاباً

(١) هناك كتاب قديم للأب بلجارده Bellegarde ، جمع بين السذاجة والطرافة وقد احتوى هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من « الحالات » التي تعرض المرء للسخرية وعنوانه : Réflexions sur le ridicule et sur les moyens de l'éviter, in 16°, 4^e éd., 1700.

يقول هذا الأب الطيب القلب « لاشك أن المرء يصبح عدواً للنظام إذا افرد بذوق خاص ولم يحذو الآخرين » . ويقول أيضاً « إن التصرفات غير المألوفة مهما ، كن نوعها ، تصدم دائماً » . وقد أدت الدراسات في هذا المجال إلى ظهور مؤلفات في « قواعد التأدب les civilités » أشهرها كتاب إرازم Erasme (nouvelle édition chez Liseux, in-16, avec Bibliographie, 1877)

في قواعد التأديب بين رجال الكنيسة . وقد نجمل هذه القواعد فنظهر بمظهر غير لائق أو غير مستساغ دون أن نكون محتقرين أو مردولين . وقد نثير الضحك والسخرية دون أن يكون ذلك داعياً إلى مقتنا . وقد نستحق أن ننبه بلطف إلى خطأ دون أن نتعرض لكرهية الناس لنا . وقد يكون الخطأ الذي نرتكبه طفيفاً بحيث لا يثير إلا ابتسامة ذات معنى . ولكن هل نحن في حاجة لأن نبين قوة الضحك أو الابتسامة كعامل يدفع للدخول في حظيرة المجتمع ؟ قد تكفي في غالب الأحيان ملاحظة عابرة لإخفاء معالم زينة غير مألوفة أو مظاهر وقح أو تعبير مبتذل . والجرىء يتحدث من جرأته نظرة استهجان وتوقفه عند حده . على أنه يجب ألا ننسى أن حدود الجرأة وحدود الأدب نسبية محضة وتختلف بحسب المجتمعات . ففي البلاد الإسلامية لا يثير (التجشؤ) أى لوم بل على العكس قد يمدح . وهناك نظم مألوفة يعمل بها في كل مجتمع والتمرد على هذه النظم لا يعنى أكثر من الخروج على القاعدة . فانيان ما هو خارج عن المؤلف من شأنه أن يبعث في ذاته على النفور .

النكفير ، والعقاب ، والسخط ، والاستهجان ، هذه هي درجات أو أشكال الجزاء الذي يتصل بالظواهر الاجتماعية . فإذا يتبقى بعد ذلك من حرية للإنسان أو حتى من حرية تتعلق بداخلية نفسه ؟ هناك قليل من الحرية على ما يظهر يتمتع به من لم ينل حظاً وفيراً من التهذيب . أما الرجل العادي فإن آراءه وأفماله يوحى إليه بها ويدفعه إليها المجتمع . فشيخصية المرء ليست إلا مظهر أو خيالاً . وإذا حاد عن الطريق الذي رسمه له المجتمع فإنه يتعرض للجزاءات التي غالباً ما تتجمع في وقت واحد . وهكذا تتحدد لدينا الصفة الجوهرية للتصرفات الجمعية : فالظواهر الاجتماعية أوضاع واصطلاحات يترتب على الإخلال بها أنواع من الجزاءات .

الفصل الثالث

تقسيم الظواهر الاجتماعية

أولاً : المجموعات الاجتماعية

بينما فيما تقدم أن علم الاجتماع إنما هو دراسة مقارنة للمجتمعات وبالتالي للظواهر الاجتماعية . فوضوعه يتضمن وصف الأوضاع والاصطلاحات الجمعية ومحاولة فهمها وتعليلها . وتكلمنا أيضاً عما يترتب على الخروج على هذه الأوضاع من أنواع الجزاءات المختلفة . وقد توصلنا حتى الآن إلى بيان ما للظواهر الاجتماعية من صفات عامة توحد بينها . واستطعنا أن نخلص من ذلك إلى صفتين أساسيتين : صفة التكرار وصفة الإلزام بدرجاته المختلفة . وما التكرار في الواقع إلا نتيجة للإلزام . والتوافق بين الناس ثمرة من ثمار سلطة المجتمع . ويمكن القول إن الظواهر الاجتماعية آراء وأفعال تصاغ في « أسلوب واحد » . ومع ذلك فقد بدأنا بالفعل نشعر أثناء كلامنا عن الجزاءات أن هذه الظواهر تختلف في طبيعتها ونتائجها . وعلى ذلك يجب علينا أن نخصي أجناسها وأنواعها وأن نقوم بعمل تصنيف لها .

فالوسائل التي اصطلح عليها الناس أو قبلوها ليعيشوا عيشة جمعية - وهي ما نسميه بالظواهر الاجتماعية - ليست كلها من نوع واحد : فمن أنواع التجمع : الفرق الدينية Sectes ، والأحزاب السياسية والنقابات العمالية . ومن العمليات الاجتماعية : أداء الشعائر ، والتعاقد ، والعمل . أليست هذه كلها ظواهر لها مميزاتها وطابعها الخاص ؟ فالواجب يقضي علينا إذن أن نحاول تنظيمها في وحدات متجانسة .

ونحن نستطيع أن نستعين في هذا المجال بنتائج البيولوجيا وليس معنى ذلك أنه يجب علينا أن نطبق على المجتمعات كل ما نعرفه أو ما نعتقد أننا نعرفه عن الكائنات الحية كما هو الحال عند المتشيعين للذهب العضوى la doctrine organiciste . ولكن كل ما نريده هو تطبيق منهج مماثل وترتيب معلوماتنا داخل إطار مشابه .

فنحن نميز بالنسبة للكائنات الحية بين الأعضاء les organes والوظائف les fonctions . فلكل من أجزاء الجسم الحى شكله الخاص ونشاطه الخاص ومنفعته الخاصة . فتركيب الأجزاء يختلف ، وتختلف أيضاً وظائفها . ولذلك فانا نميز بين التشريح أو علم الأشكال la morphologie وهو دراسة الأعضاء ، وبين الفسيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء وبالمثل بالنسبة للمجتمعات : هناك أعضاء أو عناصر أو أجزاء لجسم المجتمع وهى ما يطلق عليها الوحدات أو الطوائف الاجتماعية les groupements sociaux وهناك من ناحية أخرى أنواع من النشاط أو العمليات أو الوظائف تمارسها هذه الطوائف ونستطيع أن نسميها التصرفات الجمعية les comportements .

فهناك من ناحية الوحدات الاجتماعية ومن ناحية أخرى التصرفات الاجتماعية . وهذان هما القسمان الكبيران لتصنيف الظواهر الاجتماعية . وقد تكلم المصلح سان سيمون كما قدمنا وكذلك جان بابتيست سى Jean-Baptiste Say عن « فسيولوجيا المجتمعات » . كما أن ولیم بى Petty كان قد تكلم قبلهما بأكثر من قرن عن « التشريح السياسى anatomie politique » . يمكن إذن تقسيم الدراسة الاجتماعية إلى قسمين كبيرين : المورفولوجيا الاجتماعية أو دراسة الأعضاء ، و الفسيولوجيا الاجتماعية أو دراسة الوظائف . فلننصرف الآن إلى الكلام عن مضمون هذين النوعين

من الدراسات وتحديد فروعهما . وسنبدأ هذا العمل أولاً بالنسبة لأنواع الجماعات الإنسانية وبعد ذلك بالنسبة لأنواع التصرفات الإنسانية .

* * *

ما من مجتمع في الحاضر أو في الماضي - حتى المتوحش من المجتمعات - إلا ويتألف من مجموعات *groupes* أو تقسيمات فرعية *sous-groupes* ومعنى ذلك أن المجتمع وحدة مركبة أو معقدة . وقد أطلق دوركيم اسم المجموعات الثانوية *groupes secondaires* على هذه الأجزاء التي يتكون منها المجتمع . فليس هناك مجتمع بسيط وحتى القبائل التي نسميها « متوحشة » فانها وحدات مركبة : أى أنها تنقسم إلى مجموعات صغيرة نسميها الأسر أو العشائر « *clans* » وهذه الكلمة الأخيرة مأخوذة من أصل اسكوتلندى . فالتركيب أو التعقيد قانون كل حياة والخلية نفسها عالم داخر . وهناك من الأمثال الموروثة عند بعض الشعوب ما ينهض دليلاً على ذلك . فالبربر (*les kabyles*) من سكان الجزائر يشبهون القبيلة بثمره الخروب التي تحتوى على بذور كثيرة العدد ، هذه البذور هي الأسر . وقد شبه البدائيون متجمعاتهم بالكائنات أو الأجسام الحية ومعنى ذلك أنها متعددة الأجزاء . وإذا كان الحال كذلك بالنسبة للمجتمعات الصغيرة فلا بد أن تكون المجتمعات الكبيرة التي نعيش فيها الآن على درجة عظيمة من التعقيد . ونحن نستطيع أن نشاهد فيها عدداً كبيراً من المجموعات والتقسيمات الصغيرة مختلفة الأنواع : فالأسر والقرى ، والمناطق والمدن ، والأقاليم والدول ، والطوائف المهنية ، والفرق الدينية ، والجمعيات كل هذه مجموعات أو أجزاء يختلط بعضها ببعض ويتداخل بعضها في البعض الآخر ، كأنها دوامة كبيرة تنبعث منها حركة دائمة .

من ذلك نرى أن هناك أشكالا كثيرة لأنواع التجمع الإنسانى . وقد فطن إلى ذلك الفيلسوف العربى الفارابى الذى استقر فى مدينة حلب فى القرن العاشر . فقد عدد فى مقالة له أنواع التجمع وميز بينها من حيث الأسباب ومن حيث البواعث : فهناك جماعات تنشأ عن الرغبة الحرة وجماعات أساسها الضغط . كما أن الميلاد والزواج والإقامة والخطر والبهجة وحتى السفر كل هذه أسباب تنشأ عنها أنواع مختلفة من الجماعات . ولا شك أننا نستطيع أن نجمع هذه الحالات الخاصة فى أقسام كبيرة . وأستطيع أن أميز ثلاثة من هذه الأقسام : الجماعات البيولوجية ، والجماعات الجغرافية ، والجماعات الاجتماعية .

١ — الجماعات البيولوجية

أعنى بالجماعة البيولوجية أو الانثروبولوجية كل جماعة يشترك أفرادها فى صفة طبيعية تربط بينهم . من ذلك الأسرة التى تتألف من أقارب يرتبط بينهم دم واحد وتتكون بينهم وحدة تنشأ عن هذا الرباط . ويترتب على ذلك حقوق وواجبات خاصة لا تتعدى نطاق الأسرة . فهذه المجموعة تقوم إذن على الاشتراك فى الدم والوحدة التى تجمعها صادرة عن ظاهرة طبيعية ومن هنا نفهم سر التسمية التى أطلقناها عليها . وهناك تقسيمات داخل نطاق الجماعة البيولوجية أهمها ما يتعلق بالجنس وبالسن وبنوع القرابة .

ففى كل مجتمع يكون كل جنس بمجموعة على حدة . ولا يتفق الرجال والنساء لا فى العادات ولا فى الآراء التى تسيطر على عقولهم préjugés . وتختلف طباع وأمزجة كل فريق وغالباً ما تتعارض . فالمجموعة الجنسية لها إذن حياتها الخاصة ويظهر ذلك بوضوح فى المجتمعات البدائية إذ نلاحظ فيها الفصل التام بين نوع الحياة التى يحياها الذكور والإناث . فبين الجنسين

تعارض تام بل هوة عميقة : فلكل جنس أعماله وشعاره كما أنه ينفرد بوسائل معيشته وطرق تفكيره (١). نحن لا ننكر أنه يجب أن يكون هناك نوع من التعاون بين الجنسين ما داما يكونان مجتمعاً واحداً. ولكن بالرغم من ذلك فالجنسان يكونان مجموعتين متميزتين مختلفتين بل ومتضادتين أحياناً، وهذا خلاف ما بينهما عادة من فارق في المرتبة.

وهناك بعد ذلك وحدة السن. فتقارب الأفراد في السن وانتمائهم إلى «جيل» واحد يجعل منهم مجموعة على حدة لها آراؤها ومصالحها وغالباً ما يصطدمون من أجل هذه الآراء والمصالح بالمجموعات التي تنتمي إلى أجيال أخرى. ونلاحظ ذلك كثرأ في مجتمعاتنا الحالية : ألا يوجد بين رجال الأدب حلقات خاصة «بالشبان الأدباء» ؟ على أن هذه التفرقة تظهر بوضوح في المجتمعات البدائية. ففي هذه المجتمعات يكون كل جيل وحدة مميزة لها قوانينها وتقاليدها وأسرارها. ولا يدخل المراهق في مجتمع الرجال إلا بعد أن يمر بشعائر وطقوس معقدة تعرف باسم «شعائر الدخول في حضيرة الرجال Rites d'initiation ou de passage». وقد وجد عند قدماء اليونان نظام مماثل عن طريق التدريب العسكري L'ephebie وينشأ عن اختلاف السن اختلاف في الدرجة أو المرتبة : فالأطفال والشبان والشيوخ يؤلفون نوعاً من التدرج une hiérarchie بحيث تزداد الحقوق ومظاهر السلطة كلما صعدنا درجات السلم من أسفل إلى أعلى. وليس الشبان

(١) يمكن الرجوع إلى بعض الظواهر النموذجية حول هذا الموضوع في أفريقيا الشمالية في

Année Sociologique, nouvelle série II, P. 64-65, 1927.

أنظر أيضاً بصفة عامة كتاب شورتز بالألمانية :

H. Schurtz : A ltersklassen und Männerbünde in-8o., 1902.

المحاربون هم الزعماء بل إن الشيوخ هم الذين يتمتعون عادة بالنفوذ والسلطة. ويطلق علماء الاجتماع الإنجليز على هذه الظاهرة لاسم « حكومة الشيوخ السحرية *La gérontocratie magique* ». فالسلطة في مثل هذه الحكومات لا تقوم على القوة الجسمية بل على القوة الروحانية. وفي مجتمعاتنا الحالية من بقايا هذه النظم التي تتعلق بفروق السن ما يستحق الدراسة.

وأخيراً فإن أنواع القرابة ينشأ عنها بالمثل وحدات إنسانية تقوم على نظام طبيعي. وقد أطلق عليها دوركيم لاسم « الوحدات التي تقوم على الصلة الدموية *groupements consanguins* ». ودعامة هذه الوحدات الانحدار من سلالة واحدة وهناك أنواع مختلفة منها تختلف بحسب المجتمعات فالأسرة *la famille* والعشيرة *le clan* والقبيلة *la tribu* والاتحاد *la phratrie* ، والأسرة الرومانية *gens* والأسرة الجرمانية *sippe ou sib* كل هذه مجموعات تقوم على صلة الدم والطفل يدخل في عداد إحداها منذ ولادته ولا يخرج منها إلا بالموت. وأعضاء هذه الوحدات ينحدرون أو على الأصح يعتقدون أنهم انحدروا عن جد واحد *ancêtre commun* وسواء أكان هذا الانحدار مقررأ أو مفروضاً أو كانت هذه السلالة حقيقية أو وهمية فإن ذلك لا يؤثر فيما نحن بصدد من التقسيم. فاعتقاد الأفراد أو ادعاؤهم بأنهم انحدروا عن جد واحد يحملون اسمه على الدوام هو في ذاته تعبير عن رغبتهم في تكوين وحدة دموية. فالأسرة إذن - بما تتضمنه هذه الكلمة من اختلاف عظيم في أشكالها (١) - تعد أهم

(١) وصف دوركيم تطور الأسرة أو على الأصح تطوراتها في مجموعة من المحاضرات القيمة التي لم ينشر منها إلا أجزاء متفرقة. وبهم الجميع أن تطبع هذه المحاضرات كاملة وفي انتظار تحقيق هذه الأمنية يستطيع المارئ أن يقرأ :

Introduction à la sociologie de la famille, Annales Faculté Lettres de Bordeaux P. 257-281, 1888.

الوحدات البيولوجية الذى يقوم على دراستها علم الاجتماع . ويصح أحيانا أن تضم إلى هذه الدراسة ، دراسة طبقات المجتمع وذلك فى الحالات التى يظن أو يعتقد فيها أن هذه الطبقات ناشئة عن أجناس *races* غريبة عن بعضها البعض كما كان الحال - حسب اعتقاد بعضهم - عند نشأة روما فالطبقة فى هذه الحالة ويطلق عليها اسم *castes* تعد وحدة طبيعية ولكنها لا تحتفظ بنقائها مدة طويلة إذ لا تلبث أن تتسرب إليها عناصر دخيلة ويصبح التشبث بالأصل نوعاً من الوهم .

٢ - التجمعات الجغرافية

هناك غير التجمعات السالفة الذكر تجمعات من نوع آخر يصح تسميتها بالتجمعات الجغرافية أو «*groupements territoriaux* الإقليمية» حسب تسمية دوركيم لها . ولا يشترط فى هذه التجمعات أن تقوم على وحدة العصر وإنما تقوم على وحدة الإقامة فى مكان واحد . إذ يكفي أن يجتمع عدد من الناس جنباً إلى جنب فى صعيد واحد سواء عن طريق المصادفة أو نتيجة لظروف مرغمة حتى تتكون منهم نواة للنشأة المجتمعية . والاستقرار والإقامة فى مكان واحد حتى ولو لم يكن بين الأقارب ينشأ عنه عدد من الصلات والعلاقات المتبادلة فلا تلبث أن تولد مجتمعات جديدة سداها الجوار ولحمها التقارب . وحقوق الجوار وواجباته قد تقدم أحيانا على حقوق الأقارب وواجباتهم . ويتجلى ذلك بوضوح فى ريف فرنسا الجنوبية حيث ظلت الوحدة الإقليمية ذات طابع متميز . وفى هذه الحالة تحل رابطة الأرض *jus soli* محل رابطة الدم *jus sanguinis* . هذه التجمعات الإقليمية كثيرة ومتعددة فمنها القبائل ، والقرى ، والمدن ، والدول .

والقبائل وما يتفرع عنها من تقسيمات مختلفة (١) كانت في الأصل تجمعات عائلية ولكنها ما لبثت أن أصبحت وحدات تقوم على وحدة السكن وهي تتميز بمجموعة مساكنها . ما تملكه من أرض معينة واضحة الحدود .

والقرية هي أبسط هذه المجموعات التي تقوم على وحدة الإقليم . وهناك مظاهر كثيرة للعواطف المشتركة التي تنشأ عن حياة الجوار . فلكل قرية من قبائل البربر المستقرة في الجزائر عرفها المتداول أو تشريعها المكتوب ولها دستورها وإدارتها بحيث تكون وحدة متكاملة . وحتى في فرنسا ذاتها كلنا يعرف ما للاصطلاحات المحلية من قوة ونفوذ . وهذه الاصطلاحات تختلف من إقليم إلى آخر وهي بالنسبة للغريب على شيء كثير من الطرافة والجدة (٢) وعلى هذا يجب ألا ينظر إلى الوحدة الريفية أو الإقليم على أنه تقسيم مصطنع . فان هذه التقسيمات تكون وحدات حقيقية لها طابعها الخاص .

والمدن أو البلدان تعد أيضاً بتجمعات إقليمية (٣) . فالمدينة بمحدودها المعروفة لا تخرج عن كونها مجموعة محلية اتسع نطاقها أو قرية تضاعفت وتضخمت . وهي تمتاز بما لها وعلى الأخص بما كان لها في الماضي من قوانين

(١) Les phratries, les dèmes ou les nomes, les pagi, les terroirs, les quartiers.

(٢) للإمام كما يجب بهذه الاصطلاحات المحلية الريفية يستحسن الرجوع إلى أحد المجموعات العمارة : Recueils d'usages locaux وهي مجموعات تنشر ليسترشد بها موظفو الإدارة في الأقاليم .

(٣) لدراسة الأشكال المختلفة لحياة المدن انظر :

R. Maunier, L'origine et la fonction économique des villes, in-8o., 1910.

وأظفر كتاب المؤلف أيضاً :

Essai sur les groupements sociaux, in 16o., 1929, chap. V.

وعادات وشعور خاص كما تختلف بما لها من مصالح وحقوق . ولكل مدينة روحها وطابعها الخاص . فهذه لها طابع البلدة الصغيرة وتلك لها طابع البلدة الدينية . وقد كتب لا برويير La Bruyère فصلاً ممتعاً يبين هذا الاختلاف في الطابع كما وصفه من قبله الكاتب الهزلي ل. ب. بيكار Picard في لوحة نقدية طريفة . وقد اشتهر ما بين المدن من المنافسات والمسابقات لتؤكد كل مدينة خواصها الذاتية . وكانت هذه المسابقات تؤدي غالباً إلى شجار ينشب بين سكان بلدين متجاورين ولا زلنا نرى حتى اليوم المعارك التي تنشب بين أفراد حي وحي آخر من بلدة واحدة وما يصحب ذلك من التغنى بمزايا الحي الذي ينتمى إليه كل فريق . وسيظل سكان بلدة سانت ماري دائماً هدفًا لسخرية سكان آرل les arlésiens كما سيظل سكان مارتيج Martigues هدفًا لنقد أهل مرسيليا . وبما لا شك فيه أن المدن تختلف حسب ما تؤديه كل منها من الوظائف داخل نطاق المجتمع العام . فهناك مراكز الدفاع والحماية ضد الغارات التي تأتي من الخارج وهناك مراكز الإنتاج وهناك مراكز الاتصال بين أجزاء القطر المختلفة كما أن هناك مراكز العبادة وهذه كلها نماذج مختلفة . كما تختلف المدن أيضاً من حيث أحجامها فمنها الصغير ومنها الكبير ومنها ما يتضاءل حجمه حتى يقرب من القرية وما يعظم حجمه حتى ليكاد يتبلغ إقليمياً بأكمله . ومن المدن اليوم ما يربو عدد سكانه على عدد سكان قطر بأكمله في العصور الخالية . ولكنها ستظل دائماً « وحدات مشتركة من السكان communautés d'habitants » على حد التعبير الصحيح المستعمل في القانون الفرنسي القديم . ولا نغالي إذا قلنا إن لكل مدينة مميزاتا الخلقية وشخصيتها العقلية والمدن الكبيرة على الخصوص لها لونها الخاص في التفكير وفي طريقة الحياة . وقد لاحظ جرونر Graunt عالم

الإحصاء منذ أكثر من قرنين أن المدن الكبيرة تتميز بقدر من « حب الاستطلاع » « والقلق » لا يوجد في الأقاليم التي تعيش على البساطة . كما وجد برناردان دى سان بيير Bernardin de Saint-pierre وروسو وغيرهما أن المدن الكبيرة مصدر لفساد الخلق ويرى سيمل Simmel في عصرنا الحالى أنها تتميز بطابع الابتكار وروح الفردية وعدم المساواة وعدم الاستقرار كذلك .

والدول شأنها في ذلك شأن المدن إنما هي قبل كل شيء مجتمعات اقليمية . ولقد ظهرت محاولات عديدة قبل رينان Renan وبعده لتعريف « الدولة » وهناك عدد لا يحصى من الصيغ (١) ويؤخذ من مجموعها أن الدولة أو الوطن لا يقوم إلا باتحاد عناصر مختلفة : الاشتراك في الأصل ، ووحدة اللغة ، ووحدة الآمال والمصالح . ولكن ابتداء هذه الأسس فكرة حديثة . أما الأساس القديم الثابت فهو امتلاك جزء معين « من الأرض » . والمدن والأقطار والممالك والأمبراطوريات لا يمكن تصورها أو تخيلها أو الرمز اليها إلا في حدود المكان . والدولة التي لا أرض لها تعين حدودها كما هو الحال في البابوية أو عصبة الأمم ليست بدولة حقيقية . وهكذا نرى أن الحدود أو التخوم ذات أهمية عظيمة إذ أنها تحدد معالم الدول . ومنذ عهد المدائن القديمة حيث كانت الحدود مقدسة إلى عهد الدول الكبيرة في العصر الحاضر

(١) أنظر في هذا الموضوع

Ernest Renan: Qu'est-ce qu'une nation.

Adolf Bastian: Der Volkergedanke im Aufbau einer Wissenschaft vom Menschen, 1881.

D. G. Brinton, The nation as an element in Anthropology (Annual Report Smithsonian Institution) 1882

والالام بالنظريات المأمة عاجلة أنظر

Van Gennep, Traité comparatif des nationalités. 1922

وقد شرحنا الصفات اللازمة للدولة والأمبراطورية في الفصل السادس من كتابنا .
Essai sur les groupements sociaux.

ينظر إلى الحدود دائماً على أنها الرمز الأول للدولة . وقد عنى راتزل Ratzel وجيوم Guillaume ببيان ما للحدود من أهمية في كيان الدولة وفي تكيف شخصية الشعوب . (١) فالمسكان أو المظهر الإقليمي إذن عنصر عقلي كما أنه في نفس الوقت عنصر مادي في كيان الدولة . وهذا المظهر الإقليمي ندركه بالفكر وبالتصور وبالتخييل فهو فكرة ذات قوة ومعنى . والحدود حين تقدس وتحترم فليس ذلك لأنها تحدد بل لأنها تعرف وتميز وتؤكد شخصية كل دولة . وربما كان ذلك أحد الأسباب التي حدت بكثير من الساسة منذ عهد أرسطو للاشادة بالدول الصغيرة وذلك لأن الحدود فيها قرينة النمال تتمثل في الذهن بدقة ووضوح مما لا يتيسر في حالة الأمبراطوريات الشاسعة الأطراف . وتعين الحدود في أيامنا هذه على الخريطة بعلامات وألوان مختلفة ترمز إلى التمييز والفصل بين الشعوب في الأصقاع المختلفة . ومساحة الدول وعدد سكانها عامل كبير في قياس قوتها . فامتلاك جزء من الأرض والسيطرة عليه هو أول عامل يخلق الدولة . وقد عبر الفاتحون منذ أقدم العصور عن هذا المعنى بما كانوا يقومون به من شعائر رمزية فقد كانوا عند الانتصار يؤدون أفعالا رمزية يمتلكون بها زمام الأراضي والمياه . كانوا يغرسون الصليب في الأرض أو يشقوا الهواء بالسيف أو يدفعوا بجوادهم نحو اليم . ويقولون في لغة الحرب « إخضاع الأراضي » أكثر من قولهم « غزو شعب » ولا تزال هذه الفكرة

(١) أنظر :

Ratzel, Anthropogeographie, in-8o., 1909.

De Greef, Théorie des frontières et des classes, 2 Vol., 1908.

ولإلقاء نظرة عامة على هذا الموضوع أنظر

P. Camena d'Almeida, la notion des frontières en géographie politique, Bulletin Société de géographie commerciale de Bordeaux, XXV, P. 341-348, 1902.

قائمة حتى يومنا هذا في التعبير المعروف : « الاراضى الخاضعة للانتداب » .

وأنا لا أنكر أن الفكرة العامة التى تظهر خلال الحكم والأمان تدل على أن التمييز بين الشعوب يقوم على اساس خلقى فلكل شعب صفاته المميزة ومزاجه الخاص . ولا مانع من أن نقر بوثمى Boutmy على ما ارتآه من إنشاء « علم نفس سياسى » وأن نوافق لازاروس Lazarus وشتينال Stinthal على فكرة إنشاء « علم نفس للشعوب » . وقد نادى كذلك Savigny وغيره بأنه يجب أن يكون لكل دولة قانون خاص هو صدى لتاريخها وثمره لعقليتها . كل هذه الآراء صحيحة لا غبار عليها . ولكن كيف كان من الممكن أن تظهر هذه الاتجاهات أو يكتب لها الدوام بدون وجود العامل الاساسى وهو الاتصال والتجاور الذى بدأ من أحقاب سحيقة وترك أثره على مر السنين ؟ إن صلة الإنسان بالأرض ربما ظلت من الوثوق والقوة فى يومنا هذا كما كانت دائماً فى الأزمنة الأولى .

٣ — التجمعات الاجتماعية

نتكلم الآن عن نوع آخر من أشكال التجمع الإنسانى يقوم على أساس آخر . فهناك من أنواع التجمع ما يقوم على الاشتراك فى العمل Communauté d'action أو الوظيفة . فهى تختلف عن الأنواع التى سبق ذكرها والتى كانت تقوم على الاشتراك فى الأصل أو الاشتراك فى مكان الإقامة . هذه التجمعات تتكون من أفراد يلعبون فى الحياة دوراً واحداً أو يسعون وراء غاية واحدة دون أن يكونوا لذلك حتماً أقارب أو جيراناً . وتقوم وحدتهم على عامل اجتماعى لا على عامل طبيعى . ولذلك

اخترت أن أسمي هذه التجمعات « بالاجتماعية » (١). وهذه التجمعات أو الوحدات الاجتماعية تتخفف تماماً من حدود المكان. مثل ذلك المذهب الديني أو النقابة المهنية أو الهيئة الجامعية. فهذه كلها وحدات اجتماعية لا تنحصر داخل نطاق مكان معين بل قد يكون أفرادها متفرقين في أنحاء مختلفة من العالم. وتنوع هذه المجتمعات التي تقوم على الاشتراك في العمل أو الوظيفة في أشكال لا حصر لها. وتشهد بذلك المفردات الكثيرة التي تفيض بها اللغة في بيان هذا التنوع ومنها: مجتمع Société - رابطة association - اتحاد union - ائتلاف confédération - عصبة ligue تحالف coalition - أصحاب مذهب cabale - مؤامرة conjuration دائرة cercle - مجمع ماسوني loge - وفد أو هيئة مفوضة délégation الخ... وهناك غير ذلك كثير من الكلمات الفنية والسمكات الأجنبية. ومن أمثلة الأولى: corporation نقابة (وقد كان ذلك المعنى سائداً في العصور الوسطى) - mutualité تعاون - entreprise مشروع - syndicat نقابة (بالمعنى الحديث). ومن أمثلة الثانية: club نادى، omnium، trust، cartell consortium وكلها تدل على اتحاد الشركات لاستغلال مواردها خاصة وتستعمل في اللغة العربية كما هي. هذه الكثرة من المفردات والمصطلحات التي تدل على الطوائف الوظيفية تحتم علينا أن نقوم بتصنيف لهذه المجموعات العجيبة التي تنشأ من تلقاء ذاتها أو توجدها الظروف والتي لا صلة لها بالدم ولا بالأرض. ونحن نستطيع أن ندخل كثيراً من هذه الأشكال بطريقة قد يكون فيها شيء من التعسف في واحد من قسمين كبيرين: وحدة المركز الاجتماعي، ووحدة الوظيفة الاجتماعية.

(١) وقد سماها المؤلف أيضاً بالتجمعات الوظيفية.

أما وحدة المركز الاجتماعي فتظهر فيما يعرف بالطبقات الاجتماعية .
 فلا يخلو مجتمع ما مهما كان في طور البداوة من نوع من التدرج بين
 أفراد *hiérarchie* . وهناك غير الفروق التي يستدعيها السن والجنس فروق
 أخرى بين الطوائف ناجمة عن التفرقة في الحقوق والواجبات ، في الثروة
 أو الامتيازات . كل هذه الفروق تحدد لكل شخص حالته *condition*
 أو مركزه *situation* . ويتخذ المجتمع في العادة شكلا هرميا حين توضع
 طوائفه المختلفة بعضها فوق البعض . ونحن نستطيع أن نتبع الطريقة التي
 نشأت بها هذه الفوارق المميزة حتى تأصلت في النفوس . وهناك فوارق
 ترجع إلى الرتبة وإلى الوظيفة وإلى ألقاب الشرف وإلى الحساب الخ ... (١)
 وتميز الطبقات حسب الواقع وقد يعترف بها القانون : فهناك الأطهار
 والمنبوذون ، والأحرار والعبيد ، والنبل والسوقة ، والمتدينون والعلمانيون ،
 ورؤساء العمل والمساعدون ، وأصحاب الأعمال والعمال ، والبورجوازيون
 والمعدمون *les prolétaires* . هناك من أصحاب الامتيازات كثيرون
 وكثيرون أيضا ممن لا يتمتعون بشيء . واكتساب الحقوق بالوراثة أو
 احتكارها عن طريق الوظيفة أو ضمانها عن طريق الامتلاك كل هذه
 وسائل مختلفة للحصول على السلطان . ولكل طبقة قوانينها وعاداتها
 واصطلاحاتها ولغتها . كما أنها تقوم بدور تختص به يفرض عليها أو على الأقل
 يخصص لها ويحرم عليها القيام بدور آخر : ففي عهد الملكية الفرنسية كان
 النبلاء إذا اشتغلوا بالتجارة يفقدون صفة النبيل في نظر الناس وقد استدعى
 الأمر كثيرا من المساجلات السياسية حتى انصرفت أذهان الناس عن هذه

(١) لدراسة أصل الطبقات أنظر كتاب .

Millar, Observation sur la distinction des rangs dans la
 société, in-16o., traduit de l'anglais, 1778.

الفكرة السخيفة . وقد اشتد الاستمساك بهذه القيود حين تطورت الفوارق في المجتمعات إلى نظام الطبقات المتزمتة أو الطوائف (١) les castes فامتد التحريم والفصل بين الطبقات المختلفة إلى الطعام والملامسة ومنع الزواج بين طبقتين مختلفتين . فأصبحت القاعدة في الزواج هي الزواج الداخلي endogamie بحيث يحرم الزواج على الفرد من خارج الطبقة التي ينتمى إليها .

وقد يحدث حين يتوارث المجد والنفوذ في طبقة معينة أن يصور خيال الشعب هذه الصفات في صورة مجسمة . فقد روى لنا رينان في « ذكريات الطفولة Souvenirs d'enfance » أن الرأي العام في مقاطعة بريتانيا بغرب فرنسا كان يعتقد أن الطبقة النبيلة تتمتع بقوة خفية ومقدرة سحرية وأنها كانت على الخصوص تستطيع أن تجلب الشفاء . وقد كان هذا الاعتقاد في المقدرة على شفاء المرضى سائداً بالنسبة لملوك فرنسا الأقدمين . وفي الشرق يحاط النبلاء بهالة من القداسة (٢) ويلاحظ التدرج في المراتب بدقة وعناية يظهران حتى في التحية . ومن المعروف أن الفوارق « والمسافات » التي تفصل بين الطبقات أكثر ظهوراً ووضوحاً من الفوارق بين الشعوب نفسها . وقد عني كثير من الكتاب بدراسة « العقلية الطبقيّة L'esprit de

(١) أنظر كتاب بوجليه :

C. Bouglé, Essais sur le régime des castes, in-8o., 1908.

والكتاب المذكور يتناول نظام الطوائف في الهند والمحرمات الخاصة بالنبوذيين الخ.

(٢) أنظر كتاب دوتيه :

Edmond Doutté, Merrâkech, in-8o., 1905, P. 54-56.

نصح طالب علم الاجتماع على الخصوص بقراءة هذا الكتاب القيم الذي كتبه أحد البعثة المدققين . ونظر أيضاً ما كتبه دافريل في مجلة الشرق المسيحي :

A. d'Avril, Les hiérarchies en Orient, Revue de l'Orient chrétien IV, P. 145-149, 1898.

classe (١). فلكل طبقة آراؤها وطريقة تفكيرها التي تميزها وتدل عليها .

ولا يقتصر الأمر كما قلنا على التفرقة من حيث المركز في مجتمعاتنا الحالية على وجه الخصوص تتميز الطوائف بوحدة العمل أو الوظيفة ومن الطبيعي أن تكون لكل طبقة وظائفها . والوظيفة ذاتها من أنشط العوامل في تعدد الطوائف وأشكال التجمع . وكلما زادت الأعمال والغايات والمصالح كلما تعددت الطوائف الخاصة التي يتميز بعضها عن البعض أو يتعارض بعضها مع البعض .

فن هذه الطوائف ما يخدم الدين - أو السحر - : جمعيات إخوان ، وجمعيات سرية ، وكائنات ، ومذاهب ، وفرق رهبنة . وهذه تكون في الغالب طوائف عالية تنقسم إلى شعب محلية ثم تنقسم هذه بدورها إلى شعب إقليمية وقروية . وبنفس الطريقة كانت الجامعات الكبرى ولا تزال ، في الشرق والغرب على السواء ، مجموعات من العناصر الدولية .

ومن الطوائف ما يرجع إلى نوع العمل occupation : وتنطبق هذه الكلمة على الحرفة الثابتة profession التي يمارسها المرء على الدوام كما تنطبق أيضاً على كل عمل يخدم مصلحة أو حاجة . أي أنها تعني العمل الثابت المنتظم والعمل المؤقت غير المنتظم . ومن أمثلة هذه الطوائف طوائف أصحاب الحرف المختلفة corps de métiers ، وطوائف مساعدي العمل

(١) أنظر مقال فورنيير في المجلة الاستراكية :

E. Fournière, Conformisme de classe et de catégorie, Revue Socialiste, Nov. 1912.

وأنظر أيضاً كتاب سيمل .

Simmel, Soziologie, in-8o., 1908.

ونقابات أصحاب الأعمال والعمال وهي ترجع في قدمها إلى أبعد مما نتصور فقد كان الكثير منها قائما في العصور الوسطى وكان مصدر قلق في بعض الأحيان . ويمكن أن ندخل في عداد هذه الطوائف منظمات الطلبة في البلاد الجرمانية وهي منظمات لها شعائرها الخاصة ، ورموزها الخاصة ، وأسرارها الخاصة . كما أن لها تقاليد خاصة في طعامها ولهوها وفي حياتها العامة . ونستطيع أن نضع في عداد هذا النوع من الطوائف الجماعات التي تتكون لأي غرض يقصد من ورائه النفع : كاتحاد الأشراف *pariage* أو التعاقد على استغلال الأرض *métayage* أو الجماعات التعاونية مهما اختلف إسمها أو نوعها وأخيراً جميع الجمعيات التي تكون لأي غرض تجارى بأى شكل من الأشكال أو حجم من الأحجام . ولا يقتصر الأمر على العمل النافع فلأشهر عصاباتهم *maffia, camorra* وهي تخضع لاصطلاحات وقوانين خاصة ... ولا ننسى أخيراً الأحزاب السياسية ولجان العمل وروابط الإصلاح ... أو الثورة . كل هذه الطوائف والجماعات تدخل تحت نوع واحد ولا تختلف إلا من حيث أغراضها . (١)

وهناك من الطوائف أو الجماعات أخيراً ما تتكون لغرض اللهو أو الاستجمام وهي وأن كانت تنصرف إلى نوع من العمل لا يرجى منه منفعة مادية : ومن هذه الجماعات جماعات الرقص أو لعب الورق أو جماعات قارضى الشعر أو الموسيقيين أو محبي الرماية بالقوس وجمعيات رواد الحانات وهواة الصيد . وتجتمع أمثال هذه الجمعيات في « حلقات » *cercles* أو نوادي

(١) للإمام بهذا التنوع بالنسبة للطوائف التي تقوم على الاشتراك في الغرض أنظر

A. De Laborde, *De l'Esprit d'association dans tous les intérêts de la communauté*, 2 Vol., in-8o., 1821.

وقد وضع المؤلف لهذه الطوائف تصنيفاً أكمل في كتابه

Essais sur les groupements sociaux, chap. II, in-16o., 1929.

clubs تطلق عليها أسماء مختلفة . ويدخل في عدادها بالجملة كل جمعيات الرياضة أو اللهو أو الرحلات . وكلما تطور المجتمع من الشكل البسيط إلى الشكل المركب كلما زادت أمثال هذه الجمعيات وتشابكت . فالفرد في مجتمعاتنا الحديثة لا ينتمى إلى أسرته أو بلدته أو إقليمه فحسب بل إنه يرتبط أيضا بمجموعات أخرى كثيرة من شكلة هذه المجتمعات يختارها برغبته المحضة . فهو إلى جانب الجماعة التي يربطه بها مولده أو محل إقامته يرتبط بجماعات أخرى حسب عقائده أو نوع عمله أو هوايته . وهكذا تصبح الإرادة الحرة عاملا من عوامل التجمع . وإذا كان الناس يرتبطون استجابة للضرورة الملحة فانهم يرتبطون أيضا برغبتهم المحضة .

الفصل الرابع

تقسيم الظواهر الاجتماعية (نهاية)

ثانيا : - التصرفات الانسانية

كما أن الجسم الحى يتكون من أعضاء مختلفة فكذلك يمكن القول بأن الجماعات الانسانية التى تكلمنا عنها فى الفصل السابق هى « الاعضاء » التى يتكون منها المجتمع . ويمكن تشبيه هذه الجماعات بالأوعية المغلقة التى تنبثق منها آراء الناس وحركاتهم أو بأنها لوحات « سينمائية » تعرض عليها حركة لا تنتهى من الآراء والأفعال التى لاحصر لها . إذ يميل الناس الذين تجمعهم طائفة واحدة إلى التصرف بطريقة متشابهة . فطرق شعورهم وتفكيرهم وأفعالهم إنما هى اصطلاحات مشتركة تطبق عليها أنواع من الجزاءات . ويمكن إجمال كل ذلك فى كلمة « التصرف *comportement* » أو « السلوك *conduite* » . ويعبر الأمريكيون عن نفس المعنى بكلمة *Behaviour* . ويتعين علينا الآن أن نحدد صفات التصرفات الجمعية ونوضح مظاهرها المختلفة .

لاشك أننا نعرف أن تصرفات أى كائن حى تنحصر دائماً فى نوعين : أفكار *des notions* وأفعال *des actions* . وهذه الأخيرة هى التى تترجم عن الاولى وتخرجها إلى حيز الوجود : فهناك من ناحية العواطف والافكار ومن ناحية أخرى الافعال والحركات ، هناك الاحكام وهناك الحركات . هناك ما يعتقدوه وما يشعر به الناس حين يعيشون فى جماعة ، وهناك ما يفعلوه وما يحاوله هؤلاء الناس أنفسهم وهو يعبر دون شك عما يحول

بخطايرهم وعمما يرغبونه ويطمحون إليه كما يعبر أيضاً عما يتصورون أنهم قادرون على القيام به . وغالباً ما تكشف لنا الأفعال عما تضر السرائر .

فاذا كنا نريد أن نضع تصنيفاً واضحاً لهذه الأفكار والأفعال أفلا يحسن بنا أن نرتبها بحسب الغايات التي يظن أنها تهدف إليها ؟ ويكفينا في ذلك أن نحدد الغايات الظاهرة دون حاجة إلى تعقب الغايات الحقيقية الباطنة . ومن المسلم به أن الناس إنما يتصرفون بغية الوصول إلى بعض الغايات وأن لهم حاجات يستعينون بالفكر والعمل على إرضائها ولشباعها . وليسمح لي علماء الاقتصاد الكلاسيكيون بأن أسـتـعـبر لغتهم فأقول إن الأفكار والأفعال التي تظهر بين الناس مجتمعين تتصل بحاجات وتهدف في النهاية إلى قضائها . وعلى ذلك نستطيع أن نصف هذه الأفكار والأفعال تبعاً لنوع الحاجات التي تعمل على إشباعها .

وهذه الحاجات تنقسم إلى ثلاثة أنواع : اقتصادية وسياسية وروحية . أما الحاجات الاقتصادية فانها تتصل بالماديات وتعبر عن رغبات الناس نحو الأشياء . وكل ما نعمله لقضاء هذه الحاجات يسمى الصناعة والفن ونستطيع أن نطلق على هذا النشاط إسماً شاملاً فنسميه حياة الإنتاج *vie de production* . وأما الحاجات السياسية فانها تتصل بالحياة الجمعية وتعبر عن رغبات الناس نحو الناس . واللغة والقوانين هي وسائل لإرضاء هذه الحاجات . ونستطيع أن نطلق على هذا النشاط إسم حياة الاتصال *vie de relation* - وأخيراً الحاجات الروحية وهي تتصل بالعاطفة الدينية وتعبر عن رغبات الناس نحو الآلهة . فالدين والسحر هما الوسيـلـتان اللتان يحاول بهما الكائن الإنساني أن يشبع تلك الرغبة الملحة في كشف المجهول . ففي كل مجتمع نستطيع أن نجد آراء وأفعالا تتصل حقيقة بما « وراء الطبيعة » أي أنها

تتعلق بكائنات غير منظورة : كائنات في عالم آخر يتوصل إليها الناس بالتعبد .
 هذا النشاط الأخير إذن هو حياة العبادة vie d'adoration .

نستطيع إذن بكل سهولة ووضوح أن نرتب كل ما يعتقد به الناس وما يفعلونه في المجتمع تحت هذه المعاني الثلاثة : الإنتاج - الاتصال - العبادة .
 وليس هذا الترتيب مصطنعاً أو تعسفياً كما قد يتصور بعض الناس . فأننا حين أرجع تصرفات الناس إلى بعض « الحاجات » والغايات لا أدعى لنفسى الحكم على البواعث الدفينة التي تحركهم إلى العمل . ولا أريد أن أخطر بنفسى في مجاهر اللاشعور الزلقة التي يعتقد فرويد أنه قد توصل إلى كشفها . كلا لا أريد أن أتوغل في هذه « الأراضي المجهولة *terrae incognitae* » ويكفينى أن أقرر أن حركات الناس وآراءهم يمكن ملاحظتها من الخارج ما دمنا نستطيع أن نشاهد ونلدس الأشياء التي تنصب عليها هذه الحركات والآراء . وإذا تكلمنا بلغة القانون فالتنا نقول إن هذه الأشياء تقع تحت الحس وأنها ليست غايات خفية .

تتصل إحساسات الناس^١ وانفعالاتهم وآراؤهم وأفعالهم بأغراض ثلاثة :
 فهى إما أن تتعلق بأشياء أو بأناس أو بآلهة . هذه هى الأغراض التي تثير اهتمام الكائنات الإنسانية . والنشاط الاقتصادي أو الثروة يتصل بالأشياء وكل الآراء والحركات التي تنبعث عن هذا النشاط تمس العالم المادى :
 فغرضها دائماً يتصل بعالم الطبيعة . فإنتاج الأشياء وصنعها يحتاج إلى أخذ المواد الأولية من الطبيعة وتحويلها ومعنى ذلك أن نتصرف في الأشياء ونؤثر عليها . أما النشاط اللغوى والتشريعى فانه يتصل بالناس . والآراء والحركات التي تنبعث عن هذا النشاط تمس العالم الإنسانى ، فغرضها دائماً

سياسى . فالمحادثة أو التعاقد عمليتان تعنيان أننا نتصرف مع الناس ونؤثر فيهم . أما النشاط الدينى أو السحرى فانه يتصل بالآلهة . والآراء والحركات التى تنبعث عن هذا النشاط تمس العالم الروحى فغرضها دائماً روحانى . وليست الآلهة والأرواح والقوى السحرية حقائق مادية كالكائنات الحية والأشياء ولكنها حقائق روحية تنبعث عنها الأساطير والشعائر . فتقديم القرابين وأداء الصلوات معناه أننا نتصل بالآلهة .

الأشياء ، الناس ، الآلهة : هذه هى العناصر التى تملأ عالم الإنسان الذى يعيش فى المجتمع . وحياة الإنتاج تتصل بالأشياء . وحياة الاتصال مقصدها الناس وحياة العبادة هدفها الآلهة . وما « التصرفات » إلا الوسائل الفكرية أو العملية التى يتخذها الناس للاتصال بهذه العناصر إما لتأملها وإما للتأثير عليها .

١ - حياة الإنتاج

تخضع الأشياء التى يتكون منها العالم الخارجى لعمليات ثلاث : التغير أو التحول ، والانتقال والفناء . ولنلاحظ أن هذه العملية تضطرب دائماً بعمليات عقلية أو آراء فكرية أو بما نسميه عادة بالتصورات . فإذا أخذ المثال — كما ترويه الخرافة — قطعة من الرخام ثم سأل نفسه هل يشكلها إليها أو مائدة أو وعاء فانه يثير مشكلة الإنتاج أو تكيف الأشياء حسب الحاجات .

ونحن نعتقد أننا عن طريق عملية تغيير أو تحويل الأشياء نستطيع أن نجعلها « نافعة » . وهذه العملية معناها أننا نأخذ المادة الخام ونغير حالتها

أو شكلها أو مكانها . فإذا صنعنا وعاء من الطين أو قرية من الجلد أو قننا بصيد السمك فإن هذه العمليات كلها تسمى إنتاجاً . فالإنتاج يستلزم إذن مادة و قوة تؤثر على تلك المادة . ويطلق لاسم الصناعة أو الفن الصناعي la technologie على مجموعة الوسائل التي تؤثر بها على المادة . أو بمعنى آخر مجموعة الاختراعات والتطبيقات التي تستخدم في الإنتاج (١) .

وقد نكتفي في بعض الأحيان ، بلا شك ، باستخدام الأشياء كما هي : كأن تستخدم الحجارة لبناء الموقد ، أو الحصى لهذيب الأواني الفخارية أو كاستخدام العصي والغاب أو استخدام غلاف بعض الثمار كآنية أو جلد الحيوان أو المثانة لحفظ الماء الخ . . . هذه الأشياء تستخدم بحالتها تقريباً دون أن نجرى عليها كثيراً من التغيير .

ولكننا غالباً ما نحتاج إلى تغيير حالة الأشياء كأن نحاول عن طريق الصناعة تقليد الأشياء الطبيعية أو عمل نماذج مماثلة لها reproduction . وقد يكون التغيير أحياناً بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة فنشرع في تكييف أو تشكيل المادة الخام بحيث نمطيها شكلاً وقيمة . مثال ذلك أن نصنع « قفطاً » من الخيزران أو عيدان الغاب المضفرة .

وتستمد القوة اللازمة لهذه العمليات أو لهذه الصناعات من مصادر

(١) اقرأ في هذا الموضوع بصفة عامة :

J. R. Jackson, Des arts et inventions de la vie sauvage, Mémoires de la Société ethnologique, I, 1ère partie, P. 285 et seq., 1841.

وأيضاً :

Otis T. Mason, Origins of inventions..., in-8o., 1895.

مختلفة (١). وقد ظلت هذه القوة حيناً من الزمن قاصرة على يد الإنسان ، كما استخدمت الأرجل أو الأسنان أحياناً . ثم استعانت اليد ببعض الأدوات التي تطورت من حالة البساطة إلى الأدوات الدقيقة التي نراها اليوم . واستخدمت كذلك قوة الحيوان وأخيراً قوة الآلات . والفرق بين الأدوات outils والآلات machines أن الأولى تحركها يد الإنسان أما الثانية فتحركها طاقة من القوى الطبيعية : كالهواء أو الماء أو الحرارة أو ضغط البخار أو انتشار الموجات (٢). ومن علماء الاجتماع من كانوا على حق في إفساح مكان في مذاهبهم « لعصر الآلات » ومن هؤلاء Le Play العالم الفرنسي ، والحق أن اختراع الآلات قد أحدث تأثيرات عميقة في اتجاه الأفكار وفي محيط النشاط الإنساني .

هذه الظواهر المتعلقة بالنشاط الاقتصادي ظواهر اجتماعية قبل أن تكون نتيجة للتفكير المنطقي وإعمال الفكر (٣) فتردد الصناعة والفن أحياناً بين اتجاه وآخر إنما يرجع في معظم الحالات إلى التقاليد وإلى الأفكار السائدة في المجتمع . والسير في اتجاه بالذات قد لا يكون مرجعه دائماً إلى حكم العقل . وكثيراً ما يتعلق الناس بطريقة ما وهم يعلمون أنهم يخضعون لتأثير « الخرافة Superstition » . وقد لوحظ أن كل جماعة من الجماعات

(١) أنظر فيما يتعلق بما يلي من الكلام في هذا الموضوع

A. Espinas: Les origines de la technologie, in-8o., 1897.

A. Rey: L'invention, dans le Traité de psychologie de G. Duménil, Tome II, in-8o., 1924. وكذلك

(٢) اقرأ في هذا الموضوع :

Reuleaux: Coup d'oeil sur l'histoire du développement des machines, dans sa « Cinématique », 1877.

(٣) يستطيع القارئ أن يعثر على ملاحظات طريفة عند الظروف الاجتماعية

والنتائج التي ترتبت على صناعة الفخار في المرجع الآتي :

L'article « Pot » du Dictionnaire du mobilier français, par Viollet-le-Duc.

L'année Sociologique, VI, P. 568-572. وانظر أيضاً بصفة عامة

الإنسانية تلمسك بما وصلت اليه من أدوات صناعية حتى أن البعض استطاع أن يرسم معالم جغرافيا اجتماعية قائمة على اختلاف أدوات الصناعة وكثيراً ما تعرف الحضارات المختلفة عن طريق الصناعات السائدة فيها. ومن علماء الاجتماع من يذهب إلى الاعتقاد بأن أدوات الصناعة تؤثر على العقلية. فقال نواريه Noiré (١) بأن اللغة ثم العقل إن هما إلا ثمرتان للعمل الجمعي. وقال آخرون (٢) بأن المبادئ العقلية les concepts كانت تعكس دائماً في تطورها تطور العمل الصناعي. ثم جاء مذهب « المادية التاريخية » فردد هذه الآراء الاستقرائية إلى حد الإفراط والمبالغة.

وانتقال الأشياء أو دورتها وسيلة أخرى لدى الإنسان للانتفاع بها فالشيء حين يوجد ويصنع وبقلد سرعان ما ينتقل إلى آخرين غير مخترعه. وهؤلاء قد يدفعون فيه ثمناً أغلى. وهذه الفكرة شجعت الإنسان على أن يشتغل من أجل غيره كما يشتغل من أجل نفسه. ونشأت بين الأفراد والجماعات حركة تبادل الأشياء « والسلع ». واتخذ انتقال الأشياء في بعض الأحيان شكلاً عنيفاً وفي بعض الأحيان شكلاً هادئاً فكان السلب prédation وكان العطاء أو المنح donation. وكان تبادل الهدايا المظهر الأول للنشاط الاقتصادي الذي تحول فيما بعد إلى التجارة بمعناها الصحيح فأصبحت الأشياء والقيم تنتقل وتدور في دوائر لا حصر لها.

(١) أنظر : Noiré, Das Werkzeug, in-8o., 1880.

وانظر أيضاً التلخيص الذي كتبه لاشايبه في المجلة الفلسفية :

H. Lachelier De l'outil et de son importance dans l'humanité, Revue Philosophique XIII, P. 539-544, 1882.

(٢) اقرأ المقال الفياض الذي كتبه كوشينج :

F. H. Cushing, Manuel Concepts, A study of the influence of hand-usage on culture growth, dans American Anthropologist, V, P., 289-318, 1892.

وانظر أيضاً ماكدوجال :

American Journal of Psychology XVI, P. 232-242.

وانتقال الأشياء هذا يتضمن مبادئ عقلية وخطوات عملية ، أى أفكاراً وأفعالا : أفكار تتعلق بالقيمة والمصلحة والربح والخسارة والمخاطرة . وأفعال تتصل بالبيع والإيجار والعطاء والسلفة والاغتصاب أحيانا . وجميع هذه العمليات سواء أكانت فكرية أو عملية تخضع لقواعد واصطلاحات محدودة يظهر فيها أثر المبادئ التى تقوم على القانون والعرف العام . وهكذا نرى أن التصرفات الإنسانية يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً وإن اصطلاح العلم على الفصل بينها لتسهيل دراستها .

أما فنسأء الأشياء أو استهلاكها فهو المرحلة التى تنتهى بها دورة حياة الإنتاج فالناس يستهلكون الأشياء إن طوعا أو كرها ، بالمصادفة أو عمداً . وقد يجدون فى ذلك خسارة أو كسباً ، أو يفرحون له أو يأسفون ، وفنساء الأشياء يكون بطريقتين : الفناء المادى أو الحقيقى ، وهو الفناء الذى يسيبه استخدام السلع والانتفاع بها مما يؤدى إلى استهلاكها تواتر منذ أول استعمال لها « أو إلى استهلاكها استهلاكاً بطيئاً . وقد يكون الفناء بالمعنى المجازى حيث تترك الأشياء وتهمل فى زوايا النسيان دون أن تفنى حقيقة : من قبيل ذلك دفن المتاع والحلى مع الموتى حيث تبقى سليمة وتكتشف على حالها بعد آلاف السنين ، وكذلك القاء جزء من الثروة فى البحر للاحتفاظ بقيمة الباقي . وفى غالب الأحيان نستغنى عن استعمال الملابس أو الأمتعة لأنها لم تعد تلائم الابتكار الحديث (الموضة) . وهناك من الأشياء ما قد يدوم ويظل صالحاً للاستعمال عدة أجيال لو أن تيارات (الموضة) المتغيرة لم تقض عليه بالزوال حتى امتلات المتاحف بأنواع كثيرة من الأثاث القديم والملابس التى بطل استعمالها .

هذه التيارات الفكرية والعملية التى يخضع لها النشاط الاقتصادى تظهر لنا بوضوح قد لا يتيسر فى مجال آخر كيف تدوم الاصطلاحات وكيف

تتحول . ونستطيع بذلك أن ندرك جيداً أن التوافق *conformité* وهو العنصر الضروري لكل حياة اجتماعية لا ينفى التنوع *diversité* وأنه يسمح بالتغير . فلابتكار يغالب العادة المتوارثة وقد يغلبها أحياناً كثيرة .

٢ - حياة الاتصال

تم الصلات بين الناس بوسيلة هي اللغة وتتبع قاعدة يحددها العرف الأخلاقي والقانون . وتشمل حياة الاتصال التأثيرات والعواطف والأفكار والأفعال التي تهتم المجتمع كوحدة . ومن شأن هذه الأفكار والأفعال أن تحدد بصفة خاصة الوسائل التي يتم بها الاتصال بين الناس والقواعد التي تنظم هذا الاتصال . فاللغة والقانون والعرف الخلقى هي إذن أهم مظاهر تأثير الإنسان على الإنسان .

واللغة كما قلنا هي وسيلة الاتصال (١) . وطرق التفاهم ليست في الحقيقة إلا اصطلاحات نظمت ووضعت قواعدها . ولا بد من تبادل الإشارات والأصوات بين الناس حتى يستطيعوا أن يكونوا مجتمعاً فيما بينهم . ولكل طائفة اجتماعية لغتها الخاصة ومن اللهجات ما هو محلي أو أقليمي أو وطني أو مهني فهي تتحدد إذن بالوسط الاجتماعي . ولكل مهنة أو

(١) أنظر :

مجتمع خاص لهجته الخاصة وأساليبه في التعبير ومصطلحاته الدارجة (١) ويمكن القول إن لكل أسرة وكل جنس كلماته الخاصة به . وقد أظهرت دراسات مييه Meillet القيمة هذا الطابع الجمعي للغات (٢) . وما أصدق ملاحظة الرئيس دي بروس De Brosse في مؤلفه عن « التكوين الآلي للغات » *Traité de la formation mécanique des langues* حين قال إن الناس قد خاضوا حول أصل مشترك من المبادئ المنطقية عدداً لا نهاية له تقريباً من اللهجات واللغات . وسيأتي حتماً ذلك اليوم الذي يتعين علينا فيه أن نقارن بينها جميعاً . وقد عبر آدم سميث عن نفس الفكرة حين كتب « محاولة في دراسة تكوين اللغات *Essai sur la formation du langage* » : وقد ذهب إلى أن اللغة ليست إلا مظهراً ووسيلة لتبادل العلاقات بين الناس في المجتمع . فهي ضرورة من ضرورات الحياة الجمعية .

ويظهر تأثير الإنسان على الإنسان بحالة أشد وضوحاً في العرف الخلقي والقانون . فعيشة الإنسان في المجتمع تستلزم التغير المستمر المتواصل في علاقاته مع الآخرين : فهو اليوم يتزوج وغداً يتعاقد وبعد غد يرث ، وهو يعطى ويقرض ويستخدم غيره في أعماله . وهذه كلها علاقات قانونية . والقانون والعرف الخلقي يضمنان القواعد التي تنظم هذه العلاقات وهما لا يختلفان إلا في درجة الجزاء الذي يترتب على مخالفة كل منهما . فجزاء

(١)

A. Van Gennep, *Essai d'une théorie des langues spéciales*, *Revue des Etudes ethnographiques et sociologiques*, I, Juin-Juillet 1908.

(٢) أنظر على الخصوص من مؤلفاته :

La méthode comparative en linguistique historique, in-80., 1925.

القانون تحددها الأحكام القانونية المختلفة أما العرف الخلقى فجزاؤه يحدده
الرأى العام . ويختلف الجزاء التشريعى اختلافا تاما عن الجزاء الخلقى أو
التسكى * . على أن هذه الجزاءات على اختلافها تثبت دائما أن الظواهر
الاجتماعية إنما هى مجموعة من الالتزامات والتحريمات ، من الأوامر
والنواهى أو على الأقل من الأفعال التى يستطيع المرء إتيانها ومن الأفعال
التى يصد عنها . فالقانون إما أن يأمر أو ينهى ، إما أن ينصح أو يحذر ،
وكذلك العرف الخلقى . وكما أن لكل جماعة فيها ولغتها فكذا لها قانونها
وعرفها الخلقى وعلى ذلك يمكن القول إن هناك قانونا وعرفا خلقيا عائليا ،
ووطنيا ، ومهيا . ولكل طبقة اجتماعية وكل فئة خاصة قواعدها التى
تتصل بتنظيم علاقاتها بالآخرين . فتختلف الأوضاع الخلقية ودرجة الإرهاف
الخلقى فى المدينة بين الغوغاء عنها فى القصر بين رجال البلاط . وقد كان ولا
يزال للقراصنة والمتشردين وقطاع الطرق قواعدهم وأسرارهم التى
يحترمها ويخضع لها جميع رجال الطائفة . والحقوق والواجبات تتصف بمظهر
نسبى وما ذلك إلا لأنها تنطبع بالطابع الجمعى .

ولكننا عند ما نتكلم عن القانون يجب أن نلاحظ أن الأفعال
الإنسانية تتحدد وتنظم بطريقتين . ويدفعنا ذلك إلى الكلام عن التفرقة
الهامة التى ميز بها السير هنرى مين Henry Maine بين القانون أو النظام
le statut والعقد le contrat (١) . فمن قواعد القانون ما يفرض

* أنظر جزاءات الظواهر الاجتماعية فى الفصل الثانى فقرة (٣) . (المترجم)

(١) أنظر :

Sumner Maine, *L'ancien droit, trad. française in-8o., 1874,*
chap. IX, *Histoire primitive du contrat.*

على الأفراد دون أن يستطيعوا له تبديلا . ولذلك يقال « قانون الأحوال العينية
 «statut réel» أو «قانون الأحوال الشخصية» *statut personnel* . ومعنى ذلك
 أننا أمام «قوانين» بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة وأنه يتعين على الأفراد
 أن يسيروا وفق هذه القوانين دون أن يستطيعوا أو يكون لهم الحق في
 خرقها . فالزواج والميراث يحددان بالقانون . وشروطهما والنتائج التي
 تترتب عليهما لا يمكن أن تسير حسب هوى الأفراد . ومعظم الخطوات
 اللازمة لإتمامهما تفرض فرضا . وما القانون العام والقانون الجنائي إلا
 أقسام من ذلك القانون الملزم .

أما العقد أو ما يدخل في حكمه فيشتمل على نصوص تلعب فيها الإرادة
 والحرية دورا كبيرا . فللطرفان المتعاقدان أن يحددا بشيء كبير من الحرية
 المواد والشروط التي يتعاقدان عليها . وتحديد سعر القرض أو ثمن البيع
 أو نسبة الأرباح كل ذلك يدع مجالا كبيرا للاختيار والحرية الشخصية
 ولا يقيد العقد إلا الملتزمين بإبرامه وهو ، على حد قول بعضهم ، « قانون
 بالنسبة للطرفين المتعاقدين » . وحتى الفعل نفسه أى التعاقد حر في ذاته إذ
 أن لنا الحق في أن نتعاقد أو لا نتعاقد . ونستطيع أن نبيع أو نرفض البيع ،
 أن نعطي أو نمنع العطاء . وواضح أن ذلك يختلف عما هو معمول به في
 بعض المجتمعات من فرض الزواج على الفرد متى بلغ سنا معيناً .

على أن العقد نفسه محاط بقيود من القوانين المشرعة وينظم القانون
 والعرف الخلقى أسسه ومبادئه . فمن شروط التعاقد ما لا يباح وذلك
 لتنافيه مع الأخلاق أو لإضراره بالغير ولذلك يمنع التعاقد عليها . ومع ذلك
 يمكن القول إن الإرادة تلعب في حالة العقد دوراً أكبر مما تلعبه في حالة
 القانون الحقيقي . وشروط الأحكام التشريعية ونتائجها تحد في حالة العقد
 بشكل يدع مجالا للحرية أكثر مما في حالة القانون . وقد أدى ذلك بالكثيرين

إلى الاعتقاد بأن العقد يعطى فكرة أصدق مما يعطيها القانون عن اتجاهات
الرأى العام وذلك لما ينطبع به من طابع الحرية . ولكننا لا نستطيع أن
نجزم بهذه الفكرة وهى إن صحت فعنها أن الانفاق فى الظاهرة
الاجتماعية يجب أن يتنحى عن الطريق أمام الاختلاف أو تعدد الأشكال
multiformité . وفى رأينا أن التوافق يجب أن يسود وأن يكون الطابع
المميز للظاهرة الاجتماعية . والأفعال الإنسانية يجب أن تنطبع بطابع
واحد وتسير وفق مثال واحد هو المثال الذى يرسمه لها ذلك الكائن الصلب
الرأى العنيد «ألا وهو المجتمع . على أن هذا المثال يجب هو أيضاً أن يتطور
من حين إلى آخر . وهكذا تتبين فى تصرفات الإنسان من الناحية القانونية
كما تبين فى تصرفاته من الناحية الصناعية المظهرين الأساسيين لكل حياة
اجتماعية : الاستمرار والتغير .

٣ - حياة العبادة

لم أجد خيراً من هذا التعبير فى الدلالة على الأفكار والعواطف
والأفعال التى لا تتعلق بالأشياء المادية ولا ببنى الإنسان بل بالآلهة
والأرواح . وربما استطعنا أن نقول أيضاً حياة التصوف أو حياة التبتل
حيث أن هذه الحياة تنتهى إلى نوع من العبادة culte تظهر على شكل أفعال
وحركات وشعائر . فما يشتمل عليه الدين وكذلك ما نسميه بالسحر هو مجموعة
العقائد والأفعال التى تتصل بالكائنات المقدسة les divinités (١) . وفى هذا

(١) فيما يختص بتعريف وتصنيف الظواهر الدينية والظواهر السحرية راجع :

H. Hubert et M. Mauss, *Mélanges d'histoire des religions*,
in-8o., 1909.

ولإلقاء نظرة تاريخية على الموضوع اقرأ :

R. Dussaud, *Introduction à l'histoire des religions*, in-8o., 1914.

المجال تقسم الظواهر بطبيعتها إلى مبادئ عقلية تتصل بأفكار وإلى حركات وأفعال : فهناك من ناحية المعتقدات والعواطف أو « التجارب » حسب اصطلاح الصوفية وهذه كلها تظهر في الأساطير الدينية mythes . وهناك من ناحية أخرى الحركات والوسائل العملية وهذه تظهر في الشعائر rites فالأسطورة والشعيرة أو العقيدة والعبادة هما المظهران الأساسيان لكل ظاهرة دينية وكل ظاهرة سحرية . وهذه الظواهر أو تلك إنما هي تصرفات جماعية . فلكل جماعة عقيدتها وعبادتها الخاصة بها . وليس هناك بالرغم مما قد يقال ظاهرة تظهر فيها روح الجماعة أكثر من ظاهرة الدين . فالتوافق هنا على أكمله ويتحكم في الجميع بكل قوة . وهناك الجزء الديني سيفاً مصلتاً على الرقاب كفيلاً بأن يضمن لأحكام الدين النفاذ . والخوف من اقتراف الإثم يجبر الجميع على الخضوع للآلهة .

يمكن القول إذن إن العقيدة تتخذ أشكال متعددة حسب الأحوال الخلفة للمجتمعات . فتمثل هذه العقيدة أحياناً في بعض « القوى » المجردة غير المنظورة . أو قد يرمز لها برمز هو الطوطم حيث يعتقد الإنسان أن حياته مرتبطة به . ويطلق لاسم « النظام الطوطمي » على النظم الدينية البدائية حين يسود الاعتقاد بالقوة الخارقة التي تكمن في بعض أنواع الحيوان أو النبات فيتخذها أفراد القبيلة طوطماً لهم . وقد تشمل العقيدة في بعض الأرواح المجسمة التي تتخذ صفات وأسماء وتكون موضع التقديس والعبادة (كما هو الحال في ديانات الإغريق والرومان) . وعند بعض الشعوب الوثنية كانت هناك آلهة صغرى للجماعات والقبائل المحلية وآلهة كبرى للمجتمع بأكمله . أما الديانات السماوية كالمسيحية والإسلام فإن فكرة الإله فيها فكرة مطلقة لا يحدها زمان ولا مكان . وقد فرق كورنو Cournot على هذا النحو بين الأديان التي تضم أتباعاً في جميع أنحاء العالم prosélytiques

وبين الأديان ذات الطابع المحلى hiératiques أو الأديان الوطنية . ويمكن تقسيم الأديان أيضاً من حيث تعدد الآلهة polythéisme أو وحدة الإلهة monothéisme . ولكل جماعة - كما قلنا - عقائدها فيما يتعلق بهذه المبادئ والتصورات. ويعد كافرأ كل من ينبذ هذه المعتقدات أو يخرج عليها . فقوة الدين على حد قول منتسكيو هي « قوة العقيدة والاقتناع الذي لا يقبل الجدل » . على أن المبادئ والتصورات الدينية تهدف أيضاً من حيث نتائجها إلى غرض اجتماعي وهي تؤثر بصفة خاصة تأثيراً عظيماً على الأخلاق والقانون (أى التشريع) . أليس احترام الملكية أثراً من آثار التحريم الديني Tabou ؟ وقد وضع بنجامين كونستان Benjamin Constant (١) قبل فريزر (٢) بمدة طويلة الدور الذي لعبه الدين في تقدم التشريع وتطور الأخلاق . فالجزء الديني هو الذي فتح الطريق ورسم المثال للجزء الخلقى والجزء التشريعي . وقد قيل قديماً « إن من لا دين له لا قانون له » وكانت هاتان الفكرتان مرتبطتان كل منهما بالأخرى . والإيمان بالأرواح والآلهة كان ولا يزال إلى اليوم مصدراً من مصادر الفضيلة الخلقية .

وكما أن العقيدة la foi تختلف باختلاف الجماعات الإنسانية فكذلك

(١) إقرأ كتابه من ص ٢٧٥ - ٢٨١

De la religion considérée dans son développement, I, in-80.

وتجد في هذا الكتاب أيضاً (ص ٢٩٥ - ٢٩٦) النظرية التي وضعها تيلور Tylor فيما بعد عن النتائج الاجتماعية للأحلام .

(٢) إقرأ كتاب فريزر في ترجمته الفرنسية .

La tâche de Psyché in-160., 1914.

وهناك تلخيص وقد لهذا الكتاب بقلم بولهان في المجلة الفلسفية :

F. Paulhan: *De l'influence de la superstition sur le développement des institutions*, Revue philosophique, I, 1915.

العبادة le culte التي تعبر عنها لها أيضاً نواحيها المتعددة . والعبادة تشمل أفعالا ومحظورات أى ما نسميه بالشعائر الإيجابية والشعائر السلبية : هناك أشياء يجب عملها وأشياء يجب الامتناع عنها حتى نحصل على رضى الالهة (١) .

فالشعائر الإيجابية أو الشعائر النشطة هي أقوال وحركات : فهي إما « شعائر شفوية » أو « شعائر عملية » . ومن النوع الأول الصلوات ومن النوع الثاني تقديم القرابين . وفي كثير من المجتمعات تحيط هذه الشعائر الإيجابية بحياة الإنسان من المهد إلى اللحد . فالميلاد والتعميد (أو إدخال الطفل في حظيرة الدين Rites d'initiation) (٢) والزواج والتبني والوفاة وجميع المناسبات التي ينتقل فيها الإنسان من حالة إلى حالة تستدعى حتما أنواعا مختلفة من الشعائر المفروضة . كما أن من الشعائر ما يصحب أحداث المعيشة المختلفة : فهناك أدعية تقال ونذر تنذر عند الشروع في البناء وفي الصناعة وعند السفر وفي القتال وعند إبرام العقود . كل هذه الأحداث تشترك فيها الآلهة عن طريق بعض الشعائر المناسبة . وقد ازدهر من جديد في أيامنا هذه الشعور بالقوة الخفية وتعلن كل مغامر أو مقامر بأهداب « خرافة » اعتقد أنها تجلب له الحظ السعيد .

وفي أيام خاصة من السنة تقام الشعائر في حفلات دينية واسعة النطاق وهذه الأيام هي الأعياد (٣) . وهي تلعب دوراً مهماً في حياة الجماعة

(١) هناك أمثلة حسية لهذين النوعين من الشعائر في بلاد الجزائر في مقال للمؤلف René Maunier: *Le culte domestique en Kabylie*, *Revue d'ethnographie et des traditions populaires*, VII, P. 248, 265, 1925.

(٢) انظر مقال جوبليه والفيللا في مجلة الأديان ص ١ - ٢٥ : Goblet d'Alviella, *L'initiation, institution sociale, magique et religieuse*, *Revue de l'histoire des religions* LXXI, 1920.

(٣) انظر كتاب كورتيه عن الأعياد الدينية . E. Cortet: *Essai sur les fêtes religieuses*, in-16o., 1866.

حيث توقظ وتنمي الشعور بالروابط المشتركة . والغرض من العبادة بوجه عام هو الاتصال بالآلهة ، وطلب العون منهم واجتلاب رضاهم ومغفرتهم والحصول على البركة وإبعاد النقمة واللعنة . وكل الشعائر بلا استثناء ترمى إلى هذه الأغراض جميعاً . ولكن إذا كانت الآلهة تطلب منا العبادة عن طريق التقرب والزلفى فهي تطلب منا أيضاً احترام ما تنهى عنه : وهذا هو السر في وجود الشعائر السلبية أو المحرمات . وقد عم اليوم استعمال كلمة تابو Tabou في علم الاجتماع للدلالة على هذا المعنى . وهي كلمة بولينيزية تتصل بعقائد الشعوب البدائية وتكتب أحياناً (tapu) . وتعتبر هذه الكلمة عن جميع الأشياء التي يجب الابتعاد عنها أو منع وقوعها وعن جميع الأفعال التي يحرم إتيانها لدرء غضب الآلهة ونقمته . والمحظورات وإن كانت سلبية إلا أنها تدخل في عداد التصرفات الإنسانية . فهي في كثير من المجتمعات تحتل مكاناً كبيراً في سلوك الإنسان وتمتزج بجميع أفعاله وما علينا إلا أن نرجع إلى سلسلة المحرمات عند بعض الشعوب البدائية كسكان جزيرة مدغشقر لكي ندرك أهميتها . فمن المحرمات ما يتصل بالأشياء ومنها ما يتصل بالأشخاص ومنها ما يتصل بالأفعال : أشياء يجب ألا تلبس وأشخاص يجب ألا يقع البصر عليهم وأفعال يجب ألا تفوت . وهناك محرمات تتصل بالطعام والعمل والجنس والمهنة وبلحظات معينة من الزمان وبقاع معينة من المسكان . مجموعة من القواعد التي يجب أن تراعى والنواهي التي يجب أن يتجنب وحدودها تفصل بين الحلال والحرام . ولا يجب أن يختلط الظاهر بالنجس . وإذا كنا نريد أن نجتلب رضا الآلهة والأرواح فيجب علينا أن نعرف كيف نلتزم حدودنا منها .

وهكذا نرى أن الدين له قواعده وهي قواعد أشد صرامة من قواعد القانون والأخلاق واللغة . هذه القواعد تنتهي إلى أفعال إيجابية ومحظورات .

وإذا أنعمنا النظر وجدنا أن تلك الصفات تميز كل تصرف اجتماعي . فالدين له أوامره ونواهيه . والقانون يبيح أشياء ويحرم أشياء . والعرف الخلقى يستحسن أشياء ويستهجن أشياء . واللغة لها تعبيراتها المستساغة وتعبيراتها النابية . حتى الذوق والابتكار في الهندام يعرف ما يصح وما لا يصح وما يتفق مع الأوضاع السليمة وما يخرج عليها . فالتوافق بين أفراد المجتمع الواحد على القواعد والاصطلاحات يميز بهذين المظهرين . والقاعدة تنظم ما يجب أن تؤمن به وما يجب ألا تؤمن به . ما يجب أن يكون وما يجب ألا يكون . ما يجب أن يعمل وما يجب ألا يعمل . ما يجب أن يقال وما يجب ألا يقال . ما يجب أن يلبس وما يجب ألا يلبس . فالأفراد في المجتمع مقيدون ملتزمون بحدود معينة في أفعالهم وهم كذلك أيضاً فيما يجب أن يتجنبوا من المحظورات . والسلطة - وهي أساس التوافق - تمتد مجالها إلى كل تصرف اجتماعي مشترك .

الفصل الخامس

طرق البحث في علم الاجتماع

بعد توضيح الغرض من علم الاجتماع وذلك عن طريق تعريفه وتقسيم الظواهر الاجتماعية يتعين علينا الآن أن نتكلم عن الوسائل التي يحقق بها علم الاجتماع هذه الأغراض ومعنى ذلك هو الكلام عن منهج علم الاجتماع أو عن طرق البحث في علم الاجتماع. وقد سبق أن قلنا بوجه عام إن هذا المنهج ينحصر في عمليات ثلاث: وصف الظواهر الاجتماعية وعرضها عرضاً موضوعياً - ثم مقارنة هذه الظواهر بعضها ببعض الآخر - وأخيراً محاولة استخلاص النتائج من هذه المقارنة وتفسير سلوك الجماعات داخل نطاق المجتمع. هناك إذن ثلاث خطوات للبحث الاجتماعي ولكل خطوة وسائلها. فتقرير الظواهر ثم التقريب بينها ثم تفسيرها كل ذلك يمكن إجماله في كلمة واحدة: هي الوصول إلى فهم الحياة الاجتماعية والتغلغل في صميمها. وينحصر المجال الفني لكل علم من العلوم في هذه الخطوات الثلاث. وسأقتصر فيما يلي على بيان المبادئ العامة.

١ - وصف الظواهر الاجتماعية

وصف الظواهر الاجتماعية أو تقريرها هو الخطوة الأولى - كما قلنا - في دراسة هذه الظواهر دراسة علمية ويطلق البعض على هذه الخطوة أحياناً

« ملاحظة الظواهر الاجتماعية L'observation des faits sociaux » (١). وتنحصر هذه العملية في عزل النظم والمعتقدات وطرق المعيشة التي تسود في مجتمع ما في ماضيه وحاضره ثم في جمع هذه المعلومات وترتيبها . فإذا ما تم لنا ذلك أعملنا الفكر فيها لتعرف على حقيقتها ونستطيع أن نبرزها في ثوبها الحقيقي بعيدة عما يشوبها من الشوائب . على أنه يجب أن نتحرز من الحكم عليها وأن ننسى تماما أن هذه النظم والمعتقدات قد توافق هوى في نفوسنا أو قد لا تروق لنا . ومهمة التخلص من الأهواء والنزعة الذاتية مهمة شاقة ولكنها من ألبز الأمور في هذه الخطوة . فما من أحدي يجب ظاهرة أكل لحوم البشر ومع ذلك يجب على الباحث أن ينظر إلى هذه الظاهرة التي كانت منتشرة إلى وقت قريب في بقاع عديدة من الأرض نظرة مجردة ويحاول أن يحللها ويعرف أسبابها .

ووصف الظواهر الاجتماعية أو ملاحظتها يكون في الغالب بطريقتين : الأولى مباشرة والثانية غير مباشرة .

أما طريقة الوصف المباشر فتتصب على الظواهر الحاضرة التي نستطيع أن نشاهدها وتأملها بأنفسنا كأن نصف نظام الأسرة في مجتمع حاضر أو نظام قرية أو أحوال طائفة مهنية أو النظام الاجتماعي لشعب بأسره . ويطلق على هذه الدراسات الوصفية للمجتمعات الحاضرة اسم « وصف

(١) اقرأ في هذا الموضوع بصفة عامة :

P. A. Dufau, *De la méthode d'observation dans ses applications aux sciences morales et politiques*, in-8o., 1866.

واقرا على الخصوص كتاب دوركيم

Les règles de la méthode Sociologique, in-16o., 1895.

وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمود محمد قاسم وطبعته إدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية .

الوحدات monographie « (١) . وقد أكثرت مدرسة لويل Le Play من هذا النوع من الدراسات وبالغت فيه . ونحن نستطيع بهذه الطريقة أن نصف حياة الشعوب في القارات والجزر النائية وهي ما تسمى عادة بالشعوب البدائية . وقد أولع كثير من علماء الإثنوجرافيا أى علم وصف الأجناس البشرية بهذا النوع من الدراسات لما فيه من طرافة . فسافروا إلى هذه الأقطار النائية وتكبدوا كثيراً من المصاعب والمشقات في سبيل جمع معلوماتهم لأن عالم الأجناس لا تكون لمعلوماته قيمة إلا إذا توافر على جمعها بنفسه عن طريق الملاحظة المباشرة . وهنا يظهر الفرق بينه وبين المؤرخ الذى يكتفى غالباً بجمع معلوماته عن طريق الوثائق المكتوبة أو عن طريق ما يرويه الرواة .

وليس مهمة العالم الاجتماعى الذى يجمع المعلومات بنفسه مهمة سهلة كما قد نتصور بل أنها تحتاج إلى كثير من التدريب والمران حتى يستطيع أن يستخلص مادته وسط الخضم المضطرب من الأحوال الأساسية والأحوال العارضة ويجمع من المعلومات ما له قيمة بالنسبة لبحثه العلمى ويترك ما عداه . ففن الوصف إذن يحتاج إلى إعداد وتحضير وبداية .

وأولى وسائل التدريب أو التحضير لهذه المهمة - أى مهمة وصف المجتمعات وعاداتها وأحوالها - أن يلم الباحث بلغة المجتمع الذى يريد أن يبحته . فعرفة لغته تعينه على فهم عواطفه وأفكاره . ويجب أيضاً أن يكون للباحث إلمام بتاريخ المجتمع الذى يبحته وأن يسبق البحث إقامة

(١) اللامام بالوسائل التى اتبعت في هذه الدراسات الوصفية وخاصة فيما يتعلق بالصناعة أظن :

طويلة في ذلك المجتمع يكون الباحث فيها على اختلاط تام وصلة وثيقة بالأفراد والجماعات . ويتضح من ذلك أن الملاحظات العابرة والنظرات السريعة التي يقتنصها السياح والمسافرون لا قيمة لها من حيث البحث العلمي . يجب أن يحيا الباحث حياة القبيصة التي يدرسها ويندمج فيها تماماً فيمارس عاداتها ويؤدي شعائرها وبذلك يستطيع شيئاً فشيئاً أن يتعرف على تقاليدها ونظمها . والملاحظة تحتاج إلى كثير من الدقة والحيلة ولكنها تتطلب أيضاً في كثير من المناسبات الشجاعة والجرأة .

تلي ذلك مرحلة إعداد الوسائل ومعنى ذلك أن الملاحظة يجب أن تعد لها العدة وتبأ لها الوسائل وتوجه نحو الغرض المطلوب قبل أن يبدأ بها . فإذا أغفل العالم ذلك اختلطت عليه الأمور أمام كثرة الظواهر وحركتها السريعة فلا يستطيع أن يجلو غوامضها . ومن أحسن الوسائل التي يستعين بها الباحث على توضيح بحثه وتحديد استخدام طريقة مجموعات الأسئلة Le questionnaire فبعد أن يألف العالم الوسط الذي يريد دراسته ويكون لنفسه فكرة عن المسائل التي يريد دراستها يقوم بوضع قائمة بالأسئلة التي يصح أن تكون موضوع البحث . فلولو وصول إلى الحقائق يجب أن نبحث عنها والبحث عنها يستوجب أن يرى الباحث مسائل بحثه بوضوح وسط التعقيد الشامل . وتوجد مجموعات مطبوعة من هذه الأسئلة وهي على نوعين : مجموعات عامة تضم الظواهر التي يمكن أن توجد في مجتمع ما والتي يصح أن يتجه البحث إليها ومن هذا النوع في فرنسا مجموعات فوكار Foucart ، وماران Marin (١) ومجموعات الأسئلة التي وضعها منذ

(١) Louis Marin: Questionnaire d'ethnographie, in-8o., 1925.

ويستطيع القارئ أن يطلع على القائمة التي أعدها العلامة موس والتي لم تطبع بعد في معهد الدراسات الانثوجرافية بجامعة باريس

ما ينبغي على قرن من الزمان أعضاء البعثة العلمية التي صحبت الحملة الفرنسية على مصر . أما النوع الآخر فيشمل قوائم من الاسئلة التي تتعلق ببعض المسائل الخاصة كقائمة تورجو Turgot عن الحياة الاقتصادية في الصين وقائمة بوست Post ، كوهلر Kohler عن الحياة التشريعية . وقائمة سير جيمس فريزر عن الحياة الدينية والسحرية وقائمة كيندل Kaindel عن المعتقدات الشعبية أو الفولكلور folklore .

على أنه لا يكفي في جمع المعلومات التزام الدقة العلمية بل إن هناك جانباً خاصاً يتعلق بالمقدرة الشخصية والبداهة . فالملاحظة تستلزم مواهب خاصة من حسن التصرف ورفاهة الحس والتعمق . وانعدام هذه المواهب ينتج عنه أن يمر الباحث بجانب الظواهر دون أن يتنبه لها أو يشعر بها . والعيون المدققة التي لا يفوتها شيء أجدى على المرء من المنظار المكبر . والعلماء الذين اشتهروا بدقة الملاحظة وتشبعوا بروح المجتمعات ودرسوها قليلاً جداً في الواقع ومن أشهرهم كوشينج Cushing في أمريكا ، ولافكاديو هيرن Lafcadio Hearn في اليابان ، ودوتيه Douité في أفريقيا .

أما الوصف غير المباشر فيتعلق بطبيعة الحال بالظواهر التي كانت سائدة في العصور الماضية . فإذا كانت هناك استحالة في أن يعرف العالم هذه الظواهر بنفسه فانه يلجأ إلى معرفتها عن طريق من شاهدوها وكتبوا عنها أي أننا نصل إلى معرفة الظواهر عن طريق مصادرهما وعن طريق الوثائق التي كتبت عنها . فتكون دراستنا في الواقع أقرب شيء إلى التاريخ . ويمكن أن نسلك نفس الطريقة في دراسة ظواهر الحاضر نفسها وذلك حين نستعين بما يرويه المسافرون والرحالة . ولم تعد دراسة الاتوغرافيا « في حجرة المكتب » دائماً أنصاراً لها . ونحن نصل إلى الحقائق في هذه الحالة من خلال الشواهد

والمصادر والوثائق . ويعود الفضل في معرفتنا بالأشياء إلى من شاهدوها وعنوا بتدوين مشاهداتهم .

ولهذه المعرفة شرطان أساسيان : الأول البحث عن هذه الوثائق والإحاطة بها لإحاطة تامة على قدر المستطاع والثاني مناقشة هذه الوثائق وتحري نصيبها من الدقة العلمية .

وجمع الوثائق هو عمل الباحث المتخصص . وهناك ثلاثة أنواع من الوثائق : الأول ما يصلنا عن طريق الرواية الشفوية les traditions orales والثاني ما يصلنا عن طريق الملاحظات المكتوبة والثالث ما يصلنا عن طريق ما يكتشف من آثار العصور الغابرة . ومن النوع الأول ما تتوارثه الشعوب من الأساطير والقصص والحكم والأمثال فعن طريقها نستطيع أن نتلمس الطريق للوصول إلى مصدر الحقائق والظواهر الاجتماعية . كما أن الأشعار التي تصلنا عن طريق الرواة وتدون بعد ذلك ذات قيمة عظيمة من هذه الناحية (١) . فقد استطاع ازماين Esmein أن يمدنا بدراسة طريفة عن الملكية والعقود في المجتمع اليوناني القديم عن طريق أشعار هوميروس . كما استطاع فلاك Flach عن طريق دراسته للإلحاح الفرنسية القديمة المسماة Chansons de Geste أن يصف لنا عادات النبلاء وتقاليد الأخوة التي تجمع بينهم (٢) . واستطاع شارل لانجلوا Langlois بدراسة القصص

(١) أنظر :

G. L. Gomme, *On.... the value of folklore as ethnological data*,
Report British Association for the advancement of Science,
LXVI, 1896.

(٢) أنظر بوجه عام :

A. Hellwig *Die poetische Literatur als Quelle der Rechtserkenntniss*, 1905.

والرسائل الدينية في العصور الوسطى أن يخرج لنا مؤلفات قيمة عن « الحياة في فرنسا خلال العصور الوسطى ». أما الوثائق المكتوبة فيها القوانين واللوائح العامة وخطابات ومذكرات الخاصة وما كتبه المعاصرون من آراء حول المعتقدات والعادات . ويدخل في عداد الآثار كل ما خلفته لنا العصور الغابرة من أشياء ثابتة ومنقولة مثل بقايا المعابد والقصور وأدوات الصيد والزراعة والأواني وبقايا الملابس وأدوات الزينة والنقوش المخفورة أو المرسومة الخ ...

وتلى مرحلة جمع الوثائق - كما قدمنا - مرحلة مناقشتها ومعرفة قيمتها العلمية . فمن الشواهد ما يكون مزوراً أو مكذوباً . فيجب إذن تقديرها وطرح ما لا قيمة له منها . يجب - حسب قول كورنو Cournot - أن نزن نسبة « الاحتمال » في هذه الوثائق سواء أكانت نصوصاً تاريخية (١) أو كتابات عن الأجناس البشرية (٢) فهذه وتلك تستلزم الحيطه في

(١) للامام بقواعد نقد الوثائق التاريخية اقرأ كتاب لانجلوا وسجنوس

Langlois et Seignobos, *Introduction aux études historiques*, P. 44 seq., 1899.

وكذلك كتاب كورسيل سيني

Courcelle Seneuil, *Préparation à l'étude du droit*, P. 17 seq., 1887.

وقد بحث هذا الموضوع في القون الثامن عشر في الانسكلوبيديا التي قام بمشروعها ديدروودالمبرت وذلك تحت عنوان Erudition (طبعة جنيف الجزء الثاني عشر ١٧٧٧) (٢) أنظر في نقد المعلومات الإثنوغرافية :

Sumner Maine, *L'ancien droit*, P. 119 seq., 1880.

وكذلك :

Mac Lennan, *Studies in ancient History*, II, P. 27 seq., 1896.

ولم يهمل العلماء نقد روايات الرحالة ويستطيع القارئ أن يطلع على التحولات التي نصح بها دي بروس في خطاباته عن إيطاليا

Lettres sur l'Italie (1739).

وكتب في هذا الموضوع أيضاً دي باو

De Pauw, *Recherches philosophiques sur les américains*, 1770.

واقراً أيضاً روبرتسون

Robertson, *Histoire de l'Amérique*, trad. franc. 1780.

استخدامها. فكثيراً ما لاحظت اختلافات بالغة بين وثيقتين معاصرتين تتناولان وصف ظاهرة واحدة (١). ونقد الوثائق قد يكون نقداً داخلياً بحيث ينصب على تحرى الأسباب التي أحدثت الخطأ سواء أكانت هذه الأسباب ترجع إلى عاطفة شخصية أو إلى إهمال أو قلة خبرة وجعل بالموضوع. وقد يكون نقداً خارجياً يتصل بتحديد التاريخ وتعيين مصدر واقعة ما. فقد نعتقد أن المصدر أصلي على حين أنه يكون منتحلاً. وقد حدث مثل ذلك في دراسة الأجناس البشرية ذاتها وخاصة في دراسة الشعوب الاسترالية. ونقد الوثيقة من حيث إصالتها قد يوفر علينا نقدها من حيث مقدار الثقة بها. لأن الوثيقة المزورة لا يمكن استخدامها بطبيعة الحال.

هذه الخطوة الأولى من خطوات البحث العلمي وهي الملاحظة والوصف سواء أكان مباشراً أو غير مباشر تصل بنا إلى تكوين مجموعة من الظواهر مميزة ومحددة. وقد تصل بنا أحياناً إذا استكملت وسائل البحث وروعي فيها الدقة المتناهية إلى بيانات إحصائية statistiques. إذ يجب أن نتوق بعد أن يتم لنا جمع المعلومات إلى إصدار بيان عددي عنها (٢). فنستطيع بذلك أن نحدد مدى التوافق حين نحصى عدد المرات التي تتردد فيها ظاهرة من الظواهر. ونصل من ذلك إلى معرفة ما إذا كانت هذه الظاهرة طبيعية أم شاذة فنفصل بين الظواهر العادية والظواهر الشاذة. ونحن نستطيع كذلك أن نستخدم في الأبحاث المتصلة بالأجناس البشرية وسائل تقرب كثيراً من

(١) هناك حالة من هذا النوع في Année Sociologique المجلد التاسع ص ١٨٤

(٢) أنظر في تطبيق الطريقة الإحصائية على الملاحظة الانتوغرافية كتاب

مونيه :

R. Maunier, Les Rites de construction en Kabylie, Revue de l'histoire des Religions, 1925.

الوسائل الإحصائية . وأكتفى الآن بأن أشير إلى بعضها منها الطريقة التي تسمى بطريقة « أصول النسب Le procédé généalogique » وقد استخدمها تيلور وريفرز (١) . ومنها الطريقة التي تعتمد على سرد الأفراد لتاريخ حياتهم Le procédé biographique وقد استخدمها ثورنوالد Thurnwald ورادن Radin (٢) . فالطريقة الأولى تنحصر في عمل قوائم للأنسب des généalogies تتضح منها روابط القرابة بين العشائر المختلفة . أما الطريقة الثانية فتقوم على سرد التفاصيل الدقيقة لحياة إنسان بحيث تظهر من خلال هذه التفاصيل والحوادث اليومية العادات والعرف المتبع في المجتمع الذي يعيش فيه . وكلا الطريقتين يصل بنا إلى إحصائيات عن الأفعال والعادات المتبعة والتقاليد . وهذا هو أهم غرض يجب أن يرمى إليه وصف الظواهر الاجتماعية .

٢ — مقارنة الظواهر الاجتماعية

المقارنة هي الخطوة الثانية في البحث العلمي فهي تكمل الوصف وتوضحه فسرد الوقائع في ذاته لا قيمة له إلا إذا استتبع ذلك مقارنة الظواهر التي

(١) لدراسة هذه الطريقة أنظر كتاب ريفرز :

Rivers, The Todas, in-8o., P. 461, seq. 1906.

وكتاب آخر لنفس المؤلف :

La méthode généalogique dans les enquêtes anthropologiques, Revue d'ethnographie et de Sociologie, Nov. 1911.

(٢) اقرأ كتاب رادن :

P. Radin, The Autobiography of a Winnebago Indian, University of California Publications, XVI, 1920.

وقد فصل المؤلف قصة الحياة هذه في كتابه .

Thunder Crashing.

جمعناها عن مكان وزمان معينين بظواهر أخرى مشابهة لها جمعت في زمان ومكان آخرين . هناك إذن موازنات تاريخية وأتوغرافية (١) . فإذا كنا مثلاً ندرس النظام الإقطاعي في فرنسا فإن معرفتنا به تزداد إذا قارناه بنظام مماثلة معاصرة له أو غير معاصرة في الشرق أو الغرب (٢) . فإن هذه المقارنة هي التي توصلنا إلى تمييز الجوهر من العرض في نظام ما ومعرفة الظواهر الصحيحة من الظواهر المعتلة وتمييز الصفات الأساسية من الصفات العارضة . فقد تختلف بعض الظواهر تبعاً لاختلاف البيئة والظروف المحيطة التي تؤثر في مزاج الناس ولسكننا بالرغم من ذلك نستطيع أن نعثر على مبادئ أساسية أولية تميز الظاهرة التي ندرسها هنا وهناك . فالدراسة المقارنة تؤدي أجل الخدمات للباحث الاجتماعي . وقد تجلت فائدة الدراسة المقارنة على وجه الخصوص في دراسة الأديان (٣) وفي دراسة اللغات (٤) . فالعلوم ذات مظهر عام وهي لا تتضح إلا بالمقارنة .

(١) أنظر :

Otis T. Mason, *Similarities in culture*, American Anthropologist, VIII, 1898.

وانظر أيضاً قاموس الطريف الذي كتبه برتون بعنوان :

Dictionnaire du parallèle في دائرة المعارف اللاهوتية

L'Encyclopédie théologique التي وضعها ميني Migne ١٨٥٨

(٢) اقرأ مثلاً جيداً للدراسة المقارنة في مادة *Féodalité* في الموسوعة الكبرى

grande Encyclopédie بقلم شارل مورتيه Mortet

(٣) أنظر :

Goblet d'Alviella, *De l'emploi de la méthode comparative dans l'étude des phénomènes religieux*, Revue de l'histoire des religions XLIV, 1902.

(٤) أنظر :

A. Meillet, *Sur la méthode de la grammaire comparée*, Revue de métaphysique et de morale, 1913.

وتختلف قيمة المقارنة بحسب المنهج الذى تسير عليه . فقد تقتصر على مجرد التقريب بين الظواهر وهو ذو قيمة محدودة . وقد نجا هذا النحو سبنسر وعلماء المدرسة الانثروبولوجية الإنجليزية . فان إعداد مصنفات عظيمة تضم بين دفتها ظواهر مأخوذة عن مصادر مختلفة وبحث عنها فى أزمنة وأمكنة مختلفة كما فعل وستر مارك وعلى الأخص فريزر فى مؤلفه المشهور « الغصن الذهبى The Golden Bough » كل ذلك يعين بلا شك على إظهار بعض التشابه بين العادات والاصطلاحات المختلفة ويفيدنا فى إظهار عموميتها . ولكن ذلك لا يعنى فى الحقيقة مقارنتها .

فالمقارنة الحقيقية تختلف عن ذلك . إذ أن غرضها المقابلة الدقيقة بين الظواهر لتحديد أوجه الشبه أو أوجه الاختلاف بينها حتى نستطيع أن نصل بعد ذلك إلى بيان أسبابها . فيجب إذن أن نقارن ما يمكن أن يقارن ولا تقتصر على وضع الظواهر المختلفة بعضها بجانب البعض الآخر . ويجب أن تقتصر مقارنتنا للمجتمعات على المجتمعات التى من نوع واحد ولذلك فان تقسيم المجتمعات إلى أنواع أو فصائل أمر هام بالنسبة لعلم الاجتماع . ونحن إذا قارنا بين مجتمعات من نموذج واحد d'un même type أو من نماذج متشابهة فان تلك المقارنة تعيننا أكثر من غيرها على إجراء موازنات مفيدة ومجدية .

ولكن هذه الدراسة الخاصة بتصنيف المجتمعات لم تتقدم بعد تقدماً ملحوظاً (١) وقد اعتمد التقسيم فترة طويلة من الزمن على طريقة المعيشة الاقتصادية للسكان فقسمت الشعوب بحسب ما يزاوله السواد الأعظم من

(١) أنظر بصفة عامة :

أفرادها من مهنة لكسب العيش : فهي إما شعوب تعيش على الصيد أو الرعى أو الزراعة - أو جماعات من البدو وجماعات من الحضر وجماعات تجمع بين حياة البدو وحياة الحضر (١) . وقد قيل إن حياة البداوة أو الحضارة تؤثر كثيراً على اللغة والعادات والنظم التشريعية (٢) . أما اليوم فإن تقسيم المجتمعات يسير وفق نظامها الاجتماعي وبنائها الداخلي constitution ومن أمثلة ذلك ما جاء به سبنسر بعد أوجست كومت وسان سيمون حيث ميز تطور المجتمعات من الحالة العسكرية l'état militaire إلى الحالة الصناعية l'état industriel . كما ميز Taine بين المجتمعات الطبيعية كالأسرة والدولة والمجتمعات المصطنعة كالنقابات والأحزاب السياسية (٣) . وبميل بعض علماء الاجتماع المحدثين أمثال طونينز Tönnies ، وجيدنجز Giddings ودوركيم إلى التفرقة بين لفظتي « وحدة اجتماعية communauté ومجتمع Société وهذه التفرقة راجعة إلى درجة الائتلاف بين العناصر المكونة للمجتمع أى إلى الفرق بين كلمتي تركيب composition واندماج constitution . فالكلمة الأولى لا تعني أكثر من تجاور العناصر وإضافة بعضها إلى البعض . أما الكلمة الثانية فتعني اندماج هذه العناصر بعضها في البعض الآخر بحيث يتكون منها وحدة قائمة بذاتها .

(١) اللامام بهذه التصنيفات أنظر :

R. Maunier, *La formule de l'évolution dans la production*,
Annales de l'Institut International de Sociologie, 1912.

(٢) أنظر مثلاً :

L'année Sociologique XI, P. 307-316.

وقد وضع فريزر هذه الفكرة في

Folklore de l'ancien Testament.

(٣) أنظر :

H. Taine: *Sa vie et sa correspondance*, t. III, in-16o., 1905.

فتقسيم المجتمعات أو تصنيفها ليس إذن بالشئ الهين وقد حاول مورجان وپاول عمل تقسيم شامل للمجتمعات يسير وفق حجمها ونظامها الداخلي ودرجة حضارتها . ونجد في النشرة السنوية لعلم الاجتماع L'année Sociologique (١) محاولة لتصنيف المجتمعات تسير على هذا النمط . ونستطيع أن نصيف إليها ما قلته فيما تقدم عن الجماعات الإنسانية وقد قمت حينئذ بمحاولة سريعة لتصنيف المجتمعات . (٢)

٣ — تفسير الظواهر الاجتماعية

إن مقارنة الظواهر الاجتماعية هي الطريقة الوحيدة التي توصلنا إلى تفسيرها وعلى الأخص إلى تعليل التوافق بينها . إذ لا بد أن يخطر ببالنا أن نسأل : لماذا نجد في أنحاء متفرقة عادات واصطلاحات متشابهة وما السر في وجود هذا التوافق ؟ هناك نظريتان في تفسير هذه المسألة . الأولى نظرية الانتشار diffusion والثانية نظرية التكوين formation

وتتلخص النظرية الأولى في أن كثيراً من العلماء ظلوا مدة طويلة يفسرون التوافق بين الظواهر والآراء والمعتقدات بأنه راجع إلى التقليد

(١) أنظر :

L'année Sociologique, T. XI, P. 286-288 et XII, P. 90-91, 365, 366.

(٢) أنظر في نماذج الحضارة

Vierkandt, Die Culturtypen der Menschheit, Archiv für Anthropologie, XXV, P. 61-75, 1898.

وهناك تلخيص كتبه لالوا :

L. Laloy, L'Anthropologie, IX, P. 216 seq., 1898.

والى انتقال هذه الظواهر ونشرها من شخص الى آخر . وكان من المسلم به أن التشابه بين الناس (من حيث الآراء والمعتقدات) راجع إلى محاكاة بعضهم لبعض الآخر . وإذا كان الصينيون أو الرومان قد عرفوا نظام الأسرة الأبوية Le Patriarcat فلا بد أنهم اقتبسوا هذا النظام عن شعب آخر عاش قبلهم . فالمسألة اذن تنحصر في البحث عن الأصول les origines لا عن الأسباب ومسألة المسائل هي معرفة من ابتكر أو من الذى ابتدأ في استعمال اصطلاح ما . وما بقى بعد ذلك يسهل تقسيمه اذ أن الهجرة وارتحال السكان من اقليم الى آخر كافيان لنقل هذه الاصطلاحات وتعميمها وتسمى هذه النظرية بنظرية الاستعارة Théorie de l'emprunt . (١)

وهي ذات اتجاهين : الأول يعقد الموازنات بين العالم الجديد والعالم القديم عن طريق الفكرة التي كانت سائدة قديماً من أن اليهود قد استعمروا الأرض كلها . وقد اعتقد لافيتو Lafitau أن سكان أمريكا الأصليين قد انحدروا عن اليهود (٢) . واعتقد دى بروس مثل هذا الاعتقاد كما أن بوجانفيل Bougainville كان يدعى أنه وجد في تاهيتي « آثاراً تدل على أصل متحد مع شعوب العالم القديم » (٣) . أما في وقتنا الحاضر فقد إتجه

(١) أنظر بوجه عام :

E. Freeman, *Comparative politics*, in-8o., P. 15 seq., 1874.

J. S. Stuart Glennie, *The borrowing theory*, *Archaeological Review* IV, 1889.

(٢) نجد في مجلة La Revue du XVIIIe. siècle, IV, 1917. مجموعة من

المراجع تؤكد أن الديانات الغربية قد اقتبست كلها من الانجيل . وقد كانت هذه نظرية المسيحيين من عهد سان بول وسان كليمنت الأسكندري الى سان توماس الأكويني .

(٣) ادعى الا - تاذكار دال لاك الذى كتب

The origin of Maasai, in-8o., 1926.

أن العبيد في أواسط أفريقيا يرجع أصلهم إلى العبرانيين .

التفسير اتجاها آخر ويحاول بعض العلماء أن يبحثوا عند المصريين القدماء عن الأصل الأول للمعتقدات والنظم التي نراها اليوم . وقد سادت في وقت ما فكرة مؤداها أن الصينيين قد انحدروا عن المصريين . ومن أنصار هذا الاتجاه في إنجلترا اليوم إليوت سميث Eliot Smith ، وپرى Perry اللذان عما هذه الفكرة وتوسعا فيها حتى جعلا ريفرز يقبلها (١) . وإن يكن هذا لا ينفى أنهم قد اندفعوا في استنتاجاتهم وتخييلاتهم إلى حد جاوز المعقول . وهناك نظرية أخرى يروجها جان دى مورجان وهى أن نظم المصريين ليست هى المصدر الأول بل أنه يجب إرجاعها إلى الكنعانيين أو على الأقل يجب علينا للدقة العلمية أن نبحث عن منبع واحد تنبعث منه هاتان الحضارتان (٢) .

ومن المؤكد الذى لا جدال فيه أن الناس قد اقتبسوا كثيراً عن بعضهم البعض وأن الأفكار والعادات قد انتقلت عن طريق الهجرة مع التجارة والمحاصيل وأن اختلاط الأديان وامتزاجها قد حدث في جميع الأزمنة وأن الأساطير والأقاصيص والقوانين قد انتقلت من قارة إلى قارة . وقد اهتمت الأنثولوجيا بمثل هذه الظواهر التي ظلت مدة طويلة دون

(١) هناك مجموعة من المؤلفات في هذا الاتجاه . وللإلمام بهذه النظرية في عجالة اقرأ مثلاً :

G. Elliot Smith, Primitive man, in-8o., P. 50 (Extrait des Proceedings of the British Academy, Vol. VII).

واقراً أيضاً :

W. J. Perry, The megalithic culture of Indonesia, in-8o., 1918.

ولنفس المؤلف أيضاً :

The diffusion of Civilisation.

في المجموعة التي أصدرها Carter بعنوان :

The new past and other essays, 1925.

(٢) أنظر :

J. de Morgan, La préhistoire orientale, II, P. 248 seq., 1926; cf. I, P. 298 seq.

أن يعبرها الناس أهمية كبيرة. فالشعوب الكبيرة كلها قد نشرت ألويتها في مستعمرات بعيدة وحملت حضاراتها إلى جهات نائية. وعلى ذلك فلاستعارة إذا نظر إليها في ذاتها فانها ليست تفسيراً. إذن أن لها شروطها وحدودها والعقبات التي تعترض سبيلها. فهي نفسها محتاجة للتفسير (١). وهي في ذاتها وبمفردها لا توضح لنا السر في تشابه الحضارات. وقد لاحظ فرجسون Ferguson منذ مدة طويلة « أن ما نستعيده غالباً هو ما يتجه ميلنا الطبيعي إلى اختراعه ».

وهنا نصل إلى النظرية الثانية وهي نظرية الاختراع أو التكوين التي يفسر علماء الاجتماع بها ما نجده من التوافق بين العادات والمعتقدات خلال الزمان والمكان. وملخص هذه النظرية أن الظواهر الواحدة والنتائج الواحدة تنتج عن أسباب واحدة. فالتفسير إذن هو البحث عن الأسباب أو تتبع العلاقات بين الظواهر. فنظرية الأصل الواحد monogénisme ليست إلا خدعة، وتعدد الأصول polygénisme أقرب إلى الحقيقة وأدق. ففي ظروف متشابهة تتفق أذهان الناس عن اختراعات متشابهة. وإذا صادفهم مشاكل متشابهة اتجهوا في التغلب عليها إلى حلول متشابهة. والمعتقدات وطرائق العمل تفرض عليهم أو توحى اليهم عن طريق تشابه المناخ أو تشابه الوسط (٢) ويمكن تلخيص المبدأ الذي يسير عليه علم الاجتماع بأن « تشابه ظروف المعيشة ينتج عنه تشابه الآراء والعادات ».

(١) في مجال التشرع انتقد girard نظرية الاستعارة في مقال بالجملة الفلسفية Revue philosophique (١٨٩٣) وهناك أيضاً نقد لنظرية الاستعارة هذه من حيث تطبيقها على القصص الشعبي وهو المجال الطبيعي لها في كتاب .

J. Bédier, Les fabliaux, 4e. édit., chap. 1er. et VIII, 1925.

(٢) أنظر في تأثير المناخ والوسط الفصل السابع الفقرة الثالثة .

هذا هو الدرس الذى نتلقاه عن طريقة المقارنة . فالبحث عن تأثير المناخ وتأثير طبيعة الأرض وتأثير الوسط الاجتماعى نفسه وما يترتب على ذلك من تنوع حاجات الناس كل ذلك هو البحث عن أسباب الظواهر الاجتماعية وقد تكون الاصطلاحات محلية أو وطنية أو عالمية حسب ما تكون عليه ظروف المكان والوسط (١) . فالاصطلاح يفترض دائماً اصطلاحاً آخر يسبقه كما أن أحد النظم قد يعيننا على تفسير نظام آخر . ولكن كيف نصل الى أسباب الظواهر الاجتماعية إلا اذا اتبعنا الطرق التى ثبتت صلاحيتها بالنسبة لعلوم الحياة ؟ ومن هذه الطرق طريقة الاتفاق فى الحدوث وعدمه *La méthode de concordance* حسب تسمية ستيوارت ميل وهى الى جانب طريقة التغيرات المتلازمة *Les variations concomitantes* من أحسن الوسائل للكشف عن العلاقات بين الظواهر المختلفة . وتتلخص هاتان الطريقتان فيما يأتى : « هناك علاقة بين ظاهرتين .

أولاً : عند ما تجتمع الظاهرتان أو تحتقيان معاً .

ثانياً : اذا استدعى التغير فى الواحدة تغير مشابه فى الأخرى .

ثالثاً : اذا كان هناك تقابل أو توازى فيما يعترى الظاهرتين من زيادة أو نقص .

رابعاً : اذا كانت ظروف المكان الواحد أو الوسط الواحد

تؤثر فى كل منهما تأثيراً واحداً . وبالجمله اذا كانت هناك صلة عددية بين

الظاهرتين . وقد استخدمت هذه الطرق فى الأنثولوجيا (٢) وبذلك

محاولات لقياس معامل الارتباط *corrélation* بين العادات المختلفة قياساً

(١) نورد هنا فقرة للعالم الأخلاقى جوبير حيث قال : « هناك أخلاق وعادات تتصل بالطبيعة الإنسانية وهذه توجد دائماً فى كل مكان . فقد نقول إن هذا النظام يونانى أو رومانى أو بربرى ولكننى أقول إنه إنسانى لأن الناس أشهر بضرورته وتحتصره حين تظهر الحاجة اليه » آراء جوبير

(٢) لتطبيق طريقة التلازم فى الأنثولوجيا أنظر :

عددياً دقيقاً (١). فاتجه نيبور Niebor هذا الاتجاه في دراسة الظروف المتعلقة بنظام الرق. وقام هوبهاوس Hobhouse مستخدماً نفس هذه الطرق بتحقيق واسع النطاق لمعرفة العلاقة بين نظم الشعوب البدائية وبين الحرف التي تحترفها والوسط الذي تعيش فيه. وإذا كان هناك نقص في النتائج التي حصلنا عليها من تطبيق هذه الطرق فإن ذلك راجع في أغلب الأمر إلى عيب في وسائل استخدامها. وهذا العيب على وجه العموم هو الاكتفاء بدراسة عدد صغير من الحالات. ومن المحقق أن درجة اليقين في دراسة العلاقة بين ظاهرتين تزداد أو تنقص بمقدار عدد الملاحظات التي نجرىها ويطلق على ذلك اسم قانون الأعداد الكبيرة *La loi des grands nombres*. فإذا استطعنا أن نهيء لدراستنا أكبر عدد من الحالات وأن نستعين بعمليات إحصائية فأننا نصل إلى نتائج تبلغ من الدقة ما بلغته نتائج علوم الحياة. ويتهى بنا ما نلاحظه من التغيرات المتلازمة إلى ما نسميه بمعاملات الارتباط *corrélation* وهي عبارة عن بيانات عمودية نقيس بها ونعبر بها عما وصلنا إليه من الدقة في بيان العلاقات بين الظواهر المختلفة وباستخدام هذه الوسائل العلمية توصل بعض العلماء إلى تحديد علاقات سبب ونتيجة بين التغيرات السنوية لأسعار القمح وبين عدد الزيجات التي تتم كل سنة (٢)

(١) انظر :

E. Tylor: *On a method of investigating the development of Institutions*, Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland XVIII, 1889.

(٢) هناك قائمة بالعلاقات التي توصل إليها العلماء بتطبيق طريقة معامل الارتباط

في البحث الذي كتبه :

G. Udny Yule *Bulletin Institut international de statistique* XVIII, 1ère partie.

والإلام بالتعويضات التي يجب مراعاتها اقرأ كتاب سيمياند :

F. Simiand, *Statistique et expérience*, in-16o., 1912.

وحساب معامل الترابط أو التلازم يكون بواسطة عمليات معقدة (١) ونحن نقتصر هنا على شرح واحدة من أبسط هذه العمليات لنستدل بها على درجة الدقة التي نستطيع أن نصل إليها في تفسير الظواهر الاجتماعية : لنفرض أن هناك ظاهرتين تتوقع وجود علاقة بينهما . ولنرمز بحرف (C) إلى عدد الحالات التي تتغير فيها هاتان الظاهرتان في اتجاه واحد سواء بالزيادة أو بالنقصان . وبحرف (d) إلى عدد الحالات التي تتغير فيها الظاهرتان في اتجاه مضاد بحيث إذا طرأ على الواحدة زيادة طرأ على الأخرى نقصان أو إذا زادت الواحدة أو نقصت ظلت الأخرى على حالة ثابتة لا تتغير . وإذا رمزنا أخيراً إلى العلاقة بين الظاهرتين بحرف (i) فإن هذه العلاقة تكون :

$$\left\{ i = \frac{c - d}{c + d} \right\}$$

ونصل بذلك إلى عدد أو إلى علاقة تتراوح بين - ١ ، + ١ . فإذا كانت (c) تساوى صفراً ومعنى ذلك أنه ليس هناك أى اتفاق في الاضطراب فإن (i) أو رمز العلاقة indice يساوى - ١ . وبالعكس إذا كانت (d) هي التي تساوى صفراً ومعنى ذلك أنه ليس هناك أى تضاد فإن (i) أو رمز العلاقة يساوى + ١ . ومعنى ذلك أن علاقة الترابط بين الظاهرتين قد بلغت أقصاها . وكلما اقترب العدد الذي يرمز إلى العلاقة من الواحد

(١) للامام بالطرق المبسطة أنظر :

J. A. Harris, Biometrika VII, 1909-1910.

وكذلك :

F. Virgilio, Journal Société statistique Paris, Janv. 1912.

الصحيح كما كان ذلك دليلا على توثق الرابطة بين الظواهر التي ندرسها .
وكما اقترب على العكس من - ١ فإنا نستنتج من ذلك عدم وجود أية علاقة
بينها . ونستخلص من ذلك أن العلاقات بين الظواهر تختلف من حيث
مقدار الاضطراب أو مقدار الصلة التي تكون بينها وأنه يمكننا أن نصل الى
قياس درجة هذه الصلة . ونحن ما زلنا بوجه عام بعيدين عن بلوغ هذه الدقة
في قياس الظواهر الاجتماعية ولكن علم الاجتماع يجب أن يضع نصب عينيه
الوصول إلى هذا المستوى .

الفصل السادس

تاريخ علم الاجتماع

أولاً - مرحلة الاعداد (١)

من المتفق عليه أن علم الاجتماع بالمعنى الذى أوضحناه فيما سبق لم يبدأ إلا فى القرن الماضى (٢). وقد قيل إن أوجست كومت الذى صاغ كلمة « اجتماع » هو نفسه الذى أوجد العلم . ونحن حين نقرر ذلك فإما نتجاهل القانون الذى يسيطر على كل معرفة . فكل علم ينشأ عن طريق التكوين والتقدم المضطرد ولا يظهر أبداً طفرة واحدة أو يكون نتيجة لوحى الساعة . والمؤسسون لا بد أن يسبقهم مبشرون ولا يعقل التاريخ دون ما قبل التاريخ . ولا زلت أؤكد أن علم الاجتماع كما أفهمه لم يتأسس ولم يثبت أقدامه إلا فى خلال القرن التاسع عشر أو على الأصح فى أواخر

(١) سيجد القارىء فى هذا الفصل الذى يليه قائمة بالمصادر والوثائق الهامة فى علم الاجتماع مرتبة حسب تاريخ ظهورها . وعلى الخصوص سيجد بياناً بأهم المراجع التى توافرت على جمع المادة التى يستطيع علم الاجتماع أن يستغلها فى أبحاثه .
(٢) أنظر بصفة عامة فى تاريخ علم الاجتماع المراجع الآتية :

Durkheim, *La Sociologie en France*, *Revue Bleue*, 19 et 26 Mai 1900. Article «*La Sociologie*», dans le recueil *La Science française*, t. I, P. 39-49, 1915.

P. Barth, *Die Philosophie der Geschichte als Sociologie*, 1922.

W. Sombart, *Die Anfänge der Soziologie* dans le recueil *Haupt-probleme der Soziologie* (Max Weber), chap. I, 1923.

وهناك كتاب يقترب كثيراً من وجهة النظر المقارنة التى يعتنقها المؤلف وهو :

A. C. Haddon et H. Quiggin, *The history of anthropology*, 1910.

القرن الماضي . واذا كان هناك حقاً مخترع لهذا العلم فيلوح لى أن فرجسون
Ferguson كان ذلك المخترع . ثم جاء « المشاليون » les idéologues
الفرنسيون فكانوا أول من قام بالدعاية لهذا العلم .

ولكن مرحلة الإعداد كما قلت قد سبقت مرحلة التأسيس . فتأمل
الظواهر الاجتماعية ومقارنتها وتفسيرها كل هذه العمليات قد قام بها أناس
بطرق قد يكون فيها شيء من الالتواء والغموض . وبدلوا فيها شيئاً قليلاً
أو كثيراً من الجهد وذلك منذ أزمنة بعيدة . وفي الوقت الذى كانت
الفلسفة فيه قد نشرت لواها كانت الدراسة الوضعية المقارنة للمجتمعات
تسلك طريقها ببطء شديد .

وسأشرع أولاً فى عرض « ما قبل تاريخ » هذا التكوين ثم أعرج
بعد ذلك على التاريخ دون أن يغيب عن بالى لحظة واحدة أن علاقات قد
نشأت بين حركات الفلسفة وتقدم علم الاجتماع . فلا بد اذن من التمييز بين
مرحلتين : مرحلة الإعداد préparation ومرحلة التأسيس fondation
بمعناها الحقيقى . وتنتهى المرحلة الأولى بانتهاء القرن الثامن عشر ونستطيع
أن نميز فيها بين ثلاثة أدوار : الدور الأول دور المقارنات المستوحاة من
الكتاب المقدس ، والدور الثانى دور المقارنة فى نطاق البحر الأبيض
المتوسط ، والدور الأخير دور المقارنة العالمية .

١ — المقارنة المستوحاة من الكتاب المقدس

لا نستطيع أن نقول إن هناك دراسة اجتماعية إلا اذا قمنا بمقارنة بين
بعض الظواهر التى سبق وصفها إذ أن هذه المقارنة هى التى توصلنا إلى

تفسيرها . ولكن المقارنة ظلت مدة طويلة تقام بين أشياء لا وجود لها إلا في الخيال . وهناك أشياء لم يكن الإنسان قد توصل بعد الى وصفها عن طريق الواقع فعمد الى تصورها ثم الى تخيلها . وبمثل هذه الطريقة استطاع أن يكون لنفسه فكرة بطريق الفرض والظن عن الحالات البدائية للمجتمع وعمد الى نفس الطريقة في تتبع نموها وتقدمها . فتاريخ الأقاليم النائية ووصفها كان يقوم على الإبداع والخيال قبل أن يقوم على المشاهدة والتقرير الحسى . ولا يجب أن نحتقر هذه الحلقة بدعوى أنها لا تمت بصلة لدراسنا . فالواقع أنها وصلتنا إلى المعرفة الحقة . إذ تكون عن طريق الخيال حب الاستطلاع نحو معرفة القديم والبعيد وأخذ الناس بعد ذلك يبحثون عن الوثائق التي تحوى تاريخ الإنسانية المتناية أو الإنسانية الغابرة ليحققوا بدراستها ما كانوا قد كونوه لأنفسهم من الآراء الخيالية وقد كان الكتاب المقدس La Bible أهم المصادر الأولى لاستقاء الأخبار ولذلك فإن المقارنة المستقاة منه هي محور الارتكاز الذى قامت عليه الأبحاث الأولى .

وقد اعتقد القدماء أى قبل نزول الديانات السماوية أنهم وصلوا إلى معرفة حياة أقدم الجماعات الإنسانية عن طريق الحدس والتخمين : فأطلقوا على العصور عصر الذهب أو عصر الحديد حسب ما كانت توجيه اليهم مذاهبهم وآراؤهم المثالية (١) . فلما جاءت المسيحية أصبح الكتاب المقدس مرجعها فيما يختص بالعقائد . ومن الآراء التى اعتنقها الناس بطبيعة

(١) أنظر فى تلخيص آراء القدماء عن المجتمعات الأولى وعلى الأخص عن « العصر الذهبى » كتاب :

G. Dottin, Les anciens peuples de l'Europe, in-8o., P. 25-32, 1916.

الحال تلك التي وردت في « العهد القديم » عن أصل الإنسان وسقوطه . وهكذا كان الإنجيل أول نص أمكن للإنسان أن يجد فيه مادة لمقارناته (١) ولم يشذ علم الاجتماع عن أنواع المعرفة الإنسانية الأخرى فكان له بذلك أساطيره الأولية .

نستطيع إذن أن نقول إن حب الاستطلاع في أول مراحلها حين شرع في الوصف والمقارنة قد استعان باللاهوت La Théologie في البحث عن مادته . وبالرجوع إلى الكتاب المقدس استطاع المفكرون أن يخرجوا لنا في القرن السابع عشر أولى الدراسات الوصفية العلمية عن تشريع أو دين جماعة إنسانية معينة (٢) ومنذ سنة ١٥٤٥ نجد أن فروبين Frobein قد نشر في مدينة بال « العصور القديمة العبرية » Les antiquités judaïques

(١) اقرأ في هذا الموضوع ما كتبه جيلانيك الألماني في النشرة السنوية الجديدة لمدينة هيدلبرج .

Jahrbücher 1893.

G. Jellinek Adam in der Staatstheorie, Neue Heidelberger

واقرا أيضا ما كتبه مؤلف هذا الكتاب عن الانجيل وعلم الاجتماع المقارن .

R. Maunier, La Bible et la Sociologie Comparée, Scientia (Milan), 1919.

(٢) من أشهر هؤلاء الكتاب كونايبوس الذي كتب عن « الجمهورية العبرانية » سنة ١٦١٧ - وليون دي مودين de Modene الحاخام الذي كتب عن « الأوضاع

والأزياء التي تراعى اليوم عند اليهود

«Cérémonies et costumes qui s'observent auj. chez les Juifs».

(١٦٣٧) وترجمها إلى الفرنسية ريشار سيمون سنة ١٦٨٢ - وكتب سلدن

« Uxor ebraïca » سنة ١٦٤٦ وفي هذا الكتاب الأخير نجد

مقارنات عديدة بقوانين الغرب الحالية . وقد واصل بعد ذلك فلوري ودوم كالمى

وباستورى ، وسلقاتور استعراض النظم عند العبرانيين . وبلغ من تقدير المستشرق

الانجليزى روبرتسون سميت هؤلاء المؤلفين أنه أهدي اليهم أجل مؤلفاته - ولا نزال

نجد حتى الآن نصوصا من الإنجيل في كتب علم الاجتماع الحديثة مثل :

Source-Book in anthropology.

تأليف كروبر ووترمان الذي طبع في الولايات المتحدة سنة ١٩٢٠ .

التي كتبها المؤرخ فلافيوس جوزيف . ومن المؤلفات الهامة التي تستحق الذكر ما كتبه في كمبرج العالم اللاهوتي الإنجليزي جون سبنسر سنة ١٦٨٦ عن القوانين والشعائر والنظم العبرانية *De legibus hebraeorum ritualibus et eorum rationibus* . وقد وصف فيه في ثلاثة مجلدات جميع العادات والتقاليد الخاصة بإسرائيل وكان هذا الكتاب مصدراً للمقارنات لا ينضب معينه . وحين عرفت شعوب أمريكا اتجه الناس تَوّاً إلى تشبيهها وإلى عقد المقارنات بينها وبين الشعوب التي تحدث عنها الكتاب المقدس . وقد ظهرت هذه التشبيهات واضحة في كتابات مونتني *Montaigne* الفيلسوف الفرنسي . وجاء بعده كثير من الكتاب وجامعي الأخبار فكانت تتسلط على عقولهم جميعاً بقايا ما رسب في أذهانهم من قصص الكتاب المقدس حتى لقد قيل إنهم كانوا يدرسون القبائل المتوحشة في أمريكا ويلاحظون أحوالهم والإنجيل في أيديهم . ولم تتغير هذه النظرة إلا حين اجتاحت أوربا تيار اللادينية في القرن الثامن عشر . فقد كرس ذوو التفكير الحر *Les libertins* جهودهم ليتمكنوا لعلم الاجتماع أن يفصل شيئاً فشيئاً عن اللاهوت . ويم الباحثون وجوههم شطر عالم آخر يبحثون فيه عن مجال لعقد مقارناتهم . وقد لاحظ الناقد الأدبي الأستاذ لانسون *Lanson* هذا التحول حين كتب عن منسيكو « أن شعوب الله وقوانينها المنزلة قد احتلت في كتاباته مكاناً جديلاً بالنسبة لشعوب أمريكا المتوحشة وجزر المحيط الهادي » . ومنذ سنة ١٧٦٠ نجد أن كتاباً أمثال دي بروس *De Brosses* قد استعاضوا بالمصريين القدماء عن شعب إسرائيل في عقد مقارناتهم بين النظم القديمة والنظم السائدة عند شعوب الجزر النائية . وقد كانت المقارنات كلها حتى ذلك الحين تتخذ من الكتاب المقدس أساساً لها . وظل بعض علماء الإنجليز من أمثال فريزر مخلصين لذلك المنهج وحتى في أيامنا الحاضرة نجد في كتابات روبرت لويس ستيفنسون أن

وصف الحياة في البحار الجنوبية يثير في نفسه ذكرى الملاحم والمذابح عند الشعوب القديمة . فالزعيم في هذه الجزر الصغيرة يشبه شأؤول من جميع الوجوه .

على أن الخيال لم يفقد كل حقوقه حتى في « عصر النور » . فخلت الفلسفة محل اللاهوت وعاد المفكرون إلى أحلام القدماء عن العصر الذهبي . وكان الرحالة الأوائل وعلى الأخص منهم من جاب الآفاق البعيدة للتبشير يعودون من البلاد النائية بفكرة وهمية عن « المتوحشين » : فلم يروا فيهم إلا أنهم طيبوا القلب سعداء . وانتشرت بذلك فكرة « المتوحش الطيب le bon sauvage » . وقوامها بعض الملاحظات العابرة التي جمعت من هنا وهناك ، وبعض صفات الفضيلة التي راقبت في أعين الرهبان المبشرين . ومن الطريف أن ننظر إلى نظريات روسو الخيالية عن طيبة الإنسان البدائي على أنها من وحي القصص التي كان يرويها رهبان الجزويت . ويكفيها مجرد الإشارة إلى تلك الأوهام التي كانت المقارنة فيها تدور في حلقة مفرغة . وكانت هذه المقارنة تقوم على عرض صورتين كليهما مفتعلة افتعالاً وعلى مقابلة الواحدة بالأخرى لإظهار ما بينهما من بون شاسع . فالصورة الأولى تصور لنا البدائي أي رجل الطبيعة أما الثانية فتصور لنا المتحضر أي رجل المجتمع . وقد فرض هؤلاء الفلاسفة أن القوضى كانت تعم في العصور الأولى وأن الإنسان كان يعيش « بدون قوانين » . وكانوا يختلفون في تقدير سعادته أو تعاسته حسب أهوائهم الشخصية . ويبدأ المفكرون من هذا الخيط ليحيكوا حوله تاريخاً خيالياً يبدأ بالقبائل وينتهي بالأمبراطوريات . وقد سار على هذا النمط الشاعر سان لامبير Saint-Lambert في « تحليله التاريخي للمجتمع Analyse historique de la Société » . وسار في هذا الطريق بوفون Buffon نفسه العالم الطبيعي

فقد كان يعتقد أن المتوحشين لا يخضعون لزعيم ولا لقوانين ومعنى ذلك أنهم كانوا يتصرفون « حسب أهوائهم الشخصية ». وفي أواخر ذلك القرن الذى نحن بصده أى القرن الثامن عشر نرى أن كانت Kant الفيلسوف الألمانى يكتب « فروضه » ses conjectures عن العصور الأولى للإنسانية ونجد أن سينانكور Senancour يكتب « تأملاته » Ses Rêveries عن طبيعة الإنسان فى عصره البدائى .

يمكن القول إذن إن هذه المقارنات قد أعوزتها البيانات الصحيحة كما أعوزها المنهج السليم . كان العقل أو بتعبير أصح « الخيال » يقوم فيها مقام الملاحظة المنهجية . على أننا لا ننكر أنه فى هذه الآونة كان الاتجاه قد بدأ يظهر نحو الدراسة « الموضوعية » أى الدراسة المجدية حقاً . كما أن هذه المقارنات قد تركت الباب مفتوحاً للنقد اللاذع الذى كان يسوقه أعداء العقيدة للتشكيك فى صحة « الوحي المنزل » . فقد تراءى لأمثال هنرى استين Estienne وبايل Bayle وفولتير أن يعقدوا المقارنات بين الشعائر التى يقوم بها المتوحشون وشعائر الكاثوليكين أو الرومانيين . ولم يكن غرضهم من ذلك الوصول إلى فهم حقيقة هذه أو تلك بل كان غرضهم الوحيد هو النقد والسخرية . على أن هذا النقد وتلك السخرية كانا دائماً فى حاجة إلى دعامة قوية من المعلومات الصحيحة التى تشد أزر هؤلاء الكتاب . ولذلك يجب ألا نقفل من شأن هذه المقارنات بل يجب أن نعترف عن طيب خاطر أن اللاهوت والفلسفة قد مهدا الطريق أمام علم الاجتماع .

٢ - المقارنة فى نطاق البحر الأبيض المتوسط

إن الباعث على البحوث ذات الصبغة العلمية مرجعه إلى شعور آخر

غير الشعور الدينى أو التقىد الفلسفى . وهذا الشعور هو الرغبة فى حب الاستطلاع وكشف المجهول . وتظهر هذه الرغبة وتعم بين الناس بمجرد الكشف عن شعوب جديدة تقطن أراض نائية . وغالباً ما تبدأ حركة الأسفار والتغرب بعد مرحلة الكشف والتنقيب . وحين يبدأ الناس فى ترك أوطانهم للسفر أو للإقامة فى بلاد بعيدة لا تلبث أن تفتح أمامهم آفاق جديدة للملاحظة ثم المقارنة ويجدون فى ذلك لذة كبيرة وإشباعاً لحاجتهم للعلم . وقد كانت حركة الاستعمار منذ أزمنة بعيدة الأساس الذى قامت عليه الدراسات المقارنة بين الشعوب . ومنذ أن استقر البحاث بين القبائل والشعوب النائية أصبح من المحتم وجود علم الاجتماع . وظهرت منذ ذلك الحين الرغبة فى الوصف لذاته وفى المقارنة لذاتها . ولا نغالى إذا قلنا إن التقدم الذى أحرزه علم الاجتماع ظل إلى مدة طويلة رهناً باكتشاف أراض جديدة وبارتحال العلماء إليها ليتوفروا على كشف مجاهلها . وقد سبق أن قلنا إن الدراسة الحقة لا بد لها من إقامة طويلة فى المكان الذى نرغب فى دراسته . ولذلك فإن الدراسة المقارنة للمجتمعات قد مرت بطورين أساسيين تم فى خلالها كشف مجاهل العالم . أما الطور الأول وهو القديم ففيه كشفت الأراضى الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط : أى سواحل أوروبا وآسيا وأفريقيا مع التوغل قليلاً فى الداخل ويمتد هذا الطور حتى أواخر القرون الوسطى . أما الطور الحديث ونستطيع أن نسميه بالطور العالمى La phase universelle حيث كشفت فيه مجاهل العالم شرقاً وغرباً فقد مكن العلماء من الملاحظة والمقارنة على نطاق واسع بين شعوب تختلف فيما بينها أشد الاختلاف مبعثرة فى جميع أنحاء الكرة الأرضية . وقد بدأ هذا الطور بكشف الهند ونستطيع أن نحدد فيه ثلاثة مراحل مرحلة اكتشاف أمريكا ومجاهل آسيا ومرحلة اكتشاف جزر المحيط

الهادى ، وأخيراً مرحلة اكتشاف مجاهل أفريقيا . وهذه المراحل الثلاثة امتدت خلال ثلاثة قرون .



قامت شعوب اليونان والرومان في العصور القديمة ببعض الفتوحات واستطاعت بفضل هذه الفتوحات أن تلاحظ وتقارن . وقد بدأ اليونان عن طريق الكشف في إشباع نهيمهم للمعرفة (١) . وتبعهم بعد ذلك الرومان . وبدأت الأبحاث حول تعداد الشعوب ووصفها منذ القرن السادس قبل الميلاد . فقام هيكتيه دى ميليل Hécatee de Milet ببحث قلده فيه بعد ذلك إراتوستين Eratosthènes وقسم فيه الشعوب المعروفة بحسب أوصافها وقد اختلطت الحقائق في بحثه هذا بالترهات والأساطير . وقد كان المؤرخ هيرودوت أول من استطاع في القرن الخامس أن يعطينا صورة غنية بالحقائق عن الحياة الاجتماعية عند الشعوب « المتبربرة » كما كان يسميها الإغريق (٢) وكان هيرودوت نفسه رحالة محباً للأسفار وبالرغم من سهولة تصديقه لكل ما كان يذاع حوله من الأخبار فقد كان دقيق الملاحظة وقد ترك لنا مؤلفات خالدة ويعد « تاريخه » مصدراً ومثالا يحتذى به . وقد

(١) أنظر ما كتبه ريفو عن الأبحاث الأنثروبولوجية في عصر اليونان .

A. Rivaud, Recherches sur l'anthropologie grecque, Revue Anthropologique, tomes XXI-XXIII, 1911, 12, 13.

(٢) أنظر :

A. Grasse, Herodot als Ethnologe, in-8o., 1904.

J. L. Myres, dans R. R. Marett, *Anthropology and the Classics*, 1908.

G. Fougères, *Hérodote voyageur*, Revue des Cours et Conférences XXI, 1913.

راع هنرى استيين Estienne عند ما قام بعد ذلك بعشرين قرن أى فى عصر النهضة بتمجيد هيرودوت ما وجده من الحقائق عن العادات الغربية التى لاحظها هيرودوت عند الشعوب القديمة وزاد من إيمانه بقيمتها ما وجده من العادات المشابهة لها فى العالم الحديث . وقد انتهى من بحثه هذا إلى توضيح الفائدة الجليلة التى تنتج عن « مقارنة التواريخ بعضها ببعض الآخر » وعلى الأخص تواريخ العصور القديمة بتواريخ العصور الحديثة . وقد كتب تيموسيديد Thucydide فى هذا القرن الخامس نفسه « تاريخ اليونان » واستعان فى وصف حياتهم الأولى بكثير من المقارنات (١) ففتح بذلك باب المقارنة . وجاء بعد ذلك بقرن واحد أرسطو الذى لم يشتهر بالفلسفة فحسب بل كان أيضاً عالماً دقيق الملاحظة وجامعاً للأخبار وقد كتب مؤلفاً عظيماً ضاع بأكمله تقريباً عن نظم وداشير الشعوب اليونانية . ومن حسن الحظ أن عشر منذ أكثر من ثلاثين سنة على الجزء الخاص بدستور أثينا (٢) .

وبعد عصر أرسطو فتح المجال أمام جامعى الأخبار Les compilateurs الذين مهدوا بعملهم هذا الطريق أمام من تفرغوا للمقارنة les comparateurs فظهر منهم سترابون Strabon فى القرن الأول قبل الميلاد وظهر بعده بقرن واحد ديودور الصقلى وقد ترك الإثنان مجموعات ضخمة من الحوادث والعادات . وفى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح كتب بوزانياس Pausanias « مرشداً Guide » لبلاد اليونان وكدس فيه دون ترتيب الأساطير

(١) أنظر .

P. Roussel, Thucydide et les Barbares, Revue des Études anciennes, 1923.

(٢) ظهر الكتاب الذى فى يد القارىء فى سنة ١٩٢٩ . فكأن هذا الكشف يرجع إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر (المترجم) — أنظر الترجمة الفرنسية لدستور أثينا فى مجموعة Guillaume Budé .

والعادات والقوانين . ولكن الرومان فاقوا اليونان في هذا المضمار وظهر
فيهم من جامعي الأخبار أكثر مما ظهر من النقادة والباحثين . وقد تركوا
بمجموعات من الأخبار عاش عليها العصر الوسيط واعتمد عليها عصر النهضة
في بدأ حركة إحياء العلوم . فظهر في القرن الأول قبل الميلاد بومبونيوس
ميلا وبلين Pline . وظهر بعد ذلك فالير مكسيم Valère Maxime كما جاء
بعده سولين Solin وقد ترك هؤلاء جميعاً مجموعات تعد مؤلفات في علم
الاجتماع الوصفي (١) .

أمدت هذه الكتب الوصفية المفكرين بوضوعات لمقارنتهم . فتمكن
أولو جيل Aulu Gelle في القرن الثاني قبل الميلاد من عقد مقارنة أثبت
فيها بعض أوجه الشبه بين قانون الإثنى عشر مائدة La loi des douze
Tables وقوانين السكان الأصليين في البلاد المفتوحة . فكانت هذه أول
محاولة لوصل التاريخ بالإثنوغرافيا .

وفي العصر الوسيط توغل الرحالة بعض الشيء داخل الأراضي عبر

(١) أنظر على الخصوص بعض المؤلفات الرومانية التي ظهرت في العصر الحديث ومنها

Pomponius Mela, *De Situ Orbis*, édition Didot 1863. —

Valère Maxime, *Facta Dictaque memorabilia*.

في الفصل السادس من هذا الكتاب عرض لعادات البلاد الأجنبية في ذلك العصر

Solin, *Polyhistor*.

ظهرت ترجمة فرنسية لهذا الكتاب في سنة ١٨٤٦ وتحتوى على ٦٧ فصلاً . وقد طبعت
مؤلفات سولين لأول مرة في ١٤٧٣ وظهرت منها عدة طبعات في القرن السادس
عشر وفي القرن السابع عشر ظهرت طبعة مذيلة بنقد وشرح بقلم سوميز Soumaise
في جزأين كبيرين . وتعد مؤلفات سولين حلقة اتصال هامة بين مرحلة الوصف القديمة
ومرحلة النقد الحديثة .

شواطئ البحر الأبيض المتوسط . فكشف العالم الغربي بعض مناطق آسيا التي كانت مجهولة على حين توغل العرب في فتوحاتهم في بعض مناطق أفريقيا . فكتب ابن حنكل في القرن العاشر الميلادي موسوعة جاء فيها على ذكر المسالك والدروب ووصف الممالك . ثم تعددت السفرات التي قام بها الحجاج والمحاربون في الحروب الصليبية وجاء في عقبهم التجار ورجال الكنيسة المبشرون الذين اندفعوا في مغامراتهم حتى بلاد التار وحدود الصين . وقد عاش ماركو بولو البندق الأصل في الصين ربع قرن من الزمان ونقد عاداتها وعن بالفصل بين ما رآه بنفسه وبين ما كان يسمعه عن طريق الغير . ثم ظهرت بعد ذلك طبقة أخرى من جامعي الأخبار الذين جمعوا أخبارهم فيما سموه المرايا les miroirs والكنوز Trésors والصور Images وقد ذاعت هذه الكتابات بين الناس على شكل مخطوطات (١) .

وظهرت أولى ترجمات القرآن منذ سنة ١١٤١ وما أن جاء القرن الرابع عشر حتى كان الناس في أوروبا على معرفة تامة بنظم المسلمين وعاداتهم . وفي القرن الخامس عشر كتب بيير دايلى Pierre d'Ailly والبابا سلفيوس إنياس مؤلفات في وصف العالم . ولم يقتصر العصر الوسيط على جمع المعلومات والأخبار بل ظهر فيه أيضاً بعض البقاد والشرح وإن شئت فقل بعض من اهتموا بالدراسة المقارنة . وقد عقد روجر بيكون في القرن الثالث عشر في مؤلفه المشهور Opus Majus مقارنات بين الدين المسيحي والعبادات الوثنية وخرافات عباد الأصنام كما قارن أيضاً بين الدين المسيحي نفسه وبين الديانات اليهودية والإسلامية . وفي ذلك الوقت كتب جرفيه

(١) أنظر قائمة هذه المخطوطات عن « حالة العالم » و « حكومات العالم »

في كتاب :

دى تلبورى مؤلفاً عن المعتقدات والعادات الشعبية ويعد أول مجموعة « للفولكلور Folklore » الأوربي . وهكذا نرى في هذه المؤلفات التي ظهرت في العصر الوسيط دراسات عن بعض العادات الغربية وعن تعدد الزوجات وظاهرة أكل لحوم البشر كما نعر فيها على ملاحظات قيمة عن أمزجة الشعوب المختلفة مختلطة ببعض الخرافات عن الأقزام وعن القديس يوحنا (١) على أن هذه المقارنات ظلت إلى ذلك الحين قاصرة على البلدان القريبة التي تقع في حوض البحر الأبيض المتوسط .

٣ — المقارنة ذات النطاق العالمي

تم كشف العالم في أقل من ثلاثة قرون وبذلك امتد مجال المقارنة أولاً إلى العالم الجديد ثم إلى جزر المحيط الهادى وأخيراً إلى قلب القارة الإفريقية . فأصبحت المقارنة ذات طابع عالمى وبدأ بذلك العصر الحديث في محيط العلوم الاجتماعية .

ولقد قام كثيرون برحلات إلى جزر الهند الشرقية والغربية تحملهم السفن عبر البحار . ونستطيع أن نجد ذكر هذه الرحلات منذ أوائل القرن السادس عشر حيث نجد أن رابليه Rabelais كاتب فرنسا العظيم في ذلك العصر قد سير بطله بنتا جرويل Pantagruel إلى جهات نائية في البلاد التي كان قد تم كشفها في ذلك الوقت . وأخذت الوثائق تتجمع لدينا

(١) اقرأ في هذا الموضوع كتاب لانجلوا :

منذ ذلك الحين ولم يكتف الرحالة بكتابة ما شاهدوه بل إن الكثير منهم عاد يحمل آثاراً من الأقاليم التي زاروها. ويحدثنا التاريخ عن «قاعة الغرائب» التي احتفظ فيها هنري الرابع بما جمعه من التحف والعاديات ويمكن أن نعدّها الزوارة الأولى لمتاحف الإثنوغرافيا الحديثة. وقد وصف لنا مارمول ودابر Marmol et Dapper أفريقيا في ذلك العصر نفسه. وفي القرن السابع عشر توغل تافرنيه Tavernier في أسفاره حتى جزائر السوند واليابان. ووصف لنا الجزويت شعوب أمريكا وقام الأب شارفو Charlevoix بعد ذلك بتلخيص أبحاثهم (١). وقد رجع شاتوبريان إلى هذه الأبحاث والكتابات ليستمد منها عناصر مؤلفاته عن الإنسان البدائي. وفي القرن الثامن عشر كشف لنا بوجانفيل وكوك أحوال جزر المحيط الهادى (٢).

ويستحسن أن نضع على حدة الرحالة — المقارنين ، إذا صح أن نطلق عليهم هذه التسمية : أولئك الذين غنوا أثناء ملاحظاتهم بعقد المقارنات بين ما شاهدوه وبين ما عرف في جهات أخرى . ففربوا بذلك بين الغريب

(١) أنظر مقال ماك جوير عن علاقة الجزويت بالانثولوجيا

J. D. Mac Guire, *Ethnology in the Jesuit Relations*, American Anthropologist, nouvelle série III.

وأنظر أيضاً:

La collection des Lettres édifiantes et curieuses, publiée en quatre vol. in-4o., par Aimé Martin, en 1838.

(٢) وقد مهد القرن السابع عشر لمثل هذه الاكتشافات . ففي سنة ١٦٥٦

تجرأ موسكاردو وذكر لنا أن الأحجار التي تسمى « بأحجار الصاعقة » وليدة الصناعة الانسانية وقد كان الناس يعتقدون أنها تسقط من السماء . أنظر :

Ed. Fournier: *Le vieux-neuf, histoire ancienne des inventions....*, III, 1877.

وأنظر أيضاً :

A. Vayson, *Les Présurseurs de la préhistoire*, L'Anthropologie, XXXI, Nov. 1921.

l'archaïque والقديم l'exotique . ومهدوا لإيجاد تفسير عام لذينك النوعين من الظواهر . وقد كان أكوستا Acosta أول هؤلاء جميعاً . فنذ سنة ١٥٩٠ حاول في مؤلفه « التاريخ الطبيعى والخلقى للهند » Histoire naturelle et mormale des Indes أن يقارن بين الحديث والقديم . ويعد فرنسوا برنييه النموذج الكامل هؤلاء الرحالة الفلاسفة ودو طيب من أنصار جماعة جاسندى Gessendi ذوى التفكير الحر عاش مدة طويلة في الهندوستان ودخل في خدمة المغول . وقد أثار في « خطابه إلى شابلان » عن خرافات الهند الذى ظهر في أواخر القرن السابع عشر عدة مسائل على جانب كبير من الجدة والطرافة . ولا ننسى أخيراً لافيتو Lafitau أخذ الجزويت الذين اهتموا كثيراً بالمقارنة وساروا فيها إلى حد التطرف وقد ذكرنا من قبل أنه حاول أن يجد مجالا للتقريب بين اليهود وشعوب أمريكا من حيث الأصل . (١)

أعانت تلك الحركة جامعى الأخبار على القيام بعملهم منذ وقت مبكر . فتكاثرت المؤلفات التى تضم بين طياتها شتى المعلومات والحوادث وظهرت أول المجموعات لعلم الاجتماع الوصفى مقسمة بحسب ما تدرسه من الشعوب وتعد المجموعة التى أصدرها بويموس Boemus (١٥٢٠) عملاً من أعمال العصر الوسيط . فلم يأت فيها على ذكر أمريكا (٢) . وتحتوى هذه

(١) أنظر كتابه :

Moeurs des sauvages américains comparées aux mœurs des premiers temps, 2 Vol., in-4o., 1724, édition abrégée en 1839.

(٢)

Mores, leges et ritus omnium gentium, per Joannem Boemum, 1561.

المجموعات من العادات والنظم الغريبة على كثير من الخرافات ولكنها تشتمل أيضاً على كثير من الحقائق . ونحا نفس هذا النحو أندريه تيفيه Thevet مؤلف « الكوزموغرافيا العالمية » (١٥٧٥) . وقد قدم لنا أول ما عرف عن شعوب أمريكا في مؤلفه « عجائب فرنسا في بحار الجنوب Singularitez de la France Antartique » وأصبحت فكرة اختلاف النظم والعادات الإنسانية فكرة عامة في القرن السادس عشر . وقد عبّر بيير ميسى Pierre Messie بوضوح عن هذه الفكرة في كتابه « دروس متنوعة Leçons diverses » . وفي القرن السابع عشر ظهرت عدة مؤلفات في وصف الشعائر الجنائزية (١) . وفي القرن الثامن عشر ظهرت مجموعات ضخمة يطلق عليها اسم « الموسوعات Encyclopédies » وتحتوى على وصف عادات الشعوب المختلفة وهي جميعاً على نمط موسوعة فايتز Waitz ومن هذه الموسوعات ما هو مقسم بحسب المناطق وبحسب الشعوب مثل « تاريخ الرحلات Histoire des Voyages » للراهب بريفوست Prévost الذي ظهر في سنة ١٧٤٦ ثم طبع لاهارب Laharpe له ملخصاً في ٢١ مجلداً ومن هذا النوع أيضاً مجموعة الآب لامبر Lambert وهي سهلة التناول حسنة التقديم يستطيع الطالب أن يأخذ منها فكرة عما كان يعتقد الناس أنهم يعرفونه في ذلك العصر (٢) . وكذلك المجموعات الكبيرة المحلاة بالصور الجميلة التي أصدرها برنارد بيكار Bernard Picart عن الحفلات والعادات الدينية . (٣)

(١) منها مؤلفات جيشار Guichard (١٦٥١) ، وموريه Muret (١٦٥٧) .

وهذا الأخير أكثر اختصاراً ولكنه يمتاز بالوضوح .

(٢) Abbé Lambert, Histoire générale, civile, naturelle, politique et religieuse de tous les peuples du monde, 14 Vol., 1750.

(٣) Bernard-Picart, Cérémonies et coutumes religieuses de tous les peuples du monde, édition abrégée en 4 Vol., in-folio, 1783.

وهناك نوع آخر من المجموعات مقسم بحسب المادة ويجمع في مكان واحد كل ما عرف عن ظاهرة معينة وذلك على الطريقة التي سار عليها من بعد وستر مارك وفريزر. وسار على هذا النظام « القاموس العالمى للعادات Dictionnaire universel des Mœurs (1) وكذلك المؤلف الكبير الذى ألفه عالم جليل أتى عليه النسيان وهو المحامى ديمونييه Dèmeunier الذى ترجم رحلات كوك وألف « روح العادات L'esprit des Usages وهو موسوعة فى ثمانية عشر كتابا عن النظم الإنسانية تطلب الأبواب بما حوته من المعلومات وجمال التنسيق . وقد رتب المؤلف فى هذه الموسوعة القوانين والنظم والعادات بطريقة منهجية لا تخلو من فائدة عظيمة حتى فى وقتنا الحاضر . وبعد ديمونييه من أعظم العاملين على نهضة علم الاجتماع المقارن .

ولقد ظهر فى إثر جامعى الأخبار طائفة من العلماء بمن عزاو بالتعليق des commentateurs أو على الأصح بالمقارنة des comparateurs وكان ديمونييه كما قلنا أحد هؤلاء العلماء الذين انكبوا على ما جمع من الوثائق يتقنون فيها عن الصلات بين الظواهر المختلفة ويحاولون أن يستخلصوا منها المقارنات الشائقة . لقد قيل فى سخرية عن هؤلاء العلماء « أنهم درسوا علم الاجتماع فى منازلهم La sociologie en chambre مع أن بعضهم قام برحلات للشاهدة والدراسة . ومهما قيل فيهم فانهم قاموا بدور أساسى فى تكوين علم الاجتماع ويحق لهم أن يحتلوا المكان الأول

(١)

Dictionnaire universel, historique et critique des mœurs, lois, usages et coutumes..., par Costard, Fallet, et Contant d'Orville, 4 Vol., in-8o., 1772.

بين طائفة المبشرين بذلك العلم ويعد مونتني أحد هؤلاء العلماء فقد وصف في كتابه «المحاولات» Les Essais «اختلاف العادات كما لاحظ توافقها خلال زمن ومكان معينين. وانتشرت رويداً رويداً الفكرة بأن الشعوب القديمة قد مرت بحالات من البدائية كمثل التي تعيش فيها مجتمعات البدائيين في عصرنا الحديث. واستمرار هذه الحالات ردحا من الزمن جعل الناس يحكمون بضرورتها ثم تدرجوا من هذا الشعور إلى الاعتراف بأن تشابه الأسباب لا بد أن يتولد عنه تشابه النتائج. وإليك بعض التواريخ المهمة التي تحدد مراحل ذلك التطور:

ففي سنة ١٦٠٩ حاول مارك ليكاربو Lescarbot أن يجد مجالا للتقريب بين هنود العالم الجديد وبين «بعض الشعوب القديمة التي عاشت من قبل» (١). وجاء في أثره جروتويس Grotius (١٦٢٤) فقارن بين المتوحشين وبين الشعوب الفطرية القديمة. وحاول Fontenelle فونتنيل أن يجد وجها للشبه بين أساطير سكان أمريكا وأساطير اليونان القديمة وأراد أن يخلص من ذلك إلى أن الأسطورة قد انبعثت من تلقاء نفسها في مرحلة تكوين المجتمعات (١٦٨٦). أما لوك Locke (١٦٩٠) فقد كان يرى أن أحوال هنود أمريكا صورة طبق الأصل من أحوال الشعوب التي عاشت في الأزمنة القديمة.

ولم تكن هذه إلا ملاحظات عابرة. إذ ما لبثت أن ظهرت مؤلفات

(١) وذلك في كتابه :

«Histoire de la Nouvelle-France».

أى كندا — وقد قام ليكاربو بنفسه برحلة في تلك البلاد. وكان محاميا مثل ديغونيه ولذلك نجدهما الاستعداد للملاحظة ودراسة القوانين والمادات.

خاصة عنيت ببيان وتوضيح التوافق بين العادات : وكان أولها في سنة ١٧٠٠ كتابات نويل الكسندر (١) . ثم جاءت على الأخص كتابات تورنمين Tournemine أحد الآباء اليسوعيين الذي استطاع أن يحدد بوضوح مبدأ المقارنة (٢) . وأخيراً كتابات الرحالة لاكرينيير La Créquinière الذي حدد التشابه بين العقائد الدينية وشعائر الزواج عند الشعوب القديمة من ناحية وعند الشعوب الشرقية فيما وراء البحار من ناحية أخرى ولكنه حاول في عناد أن يفسر هذا التشابه عن طريق الاستعارة (٣) .

وقد كانت كتابات هؤلاء المؤلفين الثلاثة فاتحة للقرن الثامن عشر . فانتشرت خلال ذلك القرن فكرة أن « المتوحشين يمثلون العصور القديمة في وقتنا الحاضر » حسب ما قاله جوبير Goubert فيما بعد وقد صورهم لها فولتير على هذه الصورة واستطاع البعض أن يستخلص نتائج من هذا الاتجاه . ولكن البعض الآخر من أمثال فيكو وهيوم استمسكوا بوجهة نظر التاريخ البحث أو على الأصح فلسفة التاريخ وصموا آذانهم عن سماع

(١) أنظر :

Natalis Alexander, *Conformité des cérémonies chinoises avec l'idolâtrie grecque et romaine*, in-16o., 1700.

التوافق بين الحفلات الدينية عند الصينيين وبين الوثنية عند اليونان والرومان .

(٢)

Le P. de Tournemine, *Projet d'un ouvrage sur l'origine des Fables*. Mémoire de Trévoux, Nov. Déc. 1702.

(٣)

De la Créquinière, *Conformité des coutumes des Indiens orientaux avec celles des Juifs et des autres peuples de l'antiquité*, in-16o., 1703.

التوافق بين عادات الهنود الشرقيين وبين عادات اليهود والشعوب القديمة الأخرى

صوت الاثنوغرافيا . ونشر Goguet كتاباً بعنوان « أصل القوانين L'Origine des lois » حاول فيه أن يتتبع منذ الأصل المراحل التي مرت مرت بها العادات في تطورها وأن يحدد نماذج معينة للحضارات . وحاول الرئيس شارل دي بروس وكان رحالة من رجال القانون مثل ليكاربو أن يقرب في كتابه « الآلهة الطوطمية Les Dieux Fétiches » بين الشعوب النجروبيدية (أى سكان أواسط أفريقيا) وبين قدماء المصريين (١) . وقد استخلص دي بروس نتائج قيمة من مقارناته وأهم هذه النتائج أنه وصل إلى فكرة « أن الأفعال الواحدة تصدر عن مبدأ واحد » . كما أنه وضح في كتاباته مبدأ السببية Causalité ومبدأ الضرورة nécessité . وبين أنه من الخطأ أن تتخيل ما كان يستطيع الإنسان أن يقوم به من أفعال بل يجب علينا أن نلاحظ « ما يقوم به من أفعال في عالم الواقع » . وقد توصل عن طريق المقارنة رأساً إلى التفسير ولكنه خلط في تفسيراته بين عامل الانتقال transmission (أى انتقال العادات من مكان إلى آخر عن طريق الهجرة الخ .) وعامل التكوين formation (أى نشأة العادات في البيئة التي لوحظت فيها) (١) كما فعل بعده بسنوات قليلة زميله ديمونيه الذي جاء ذكره فيما سبق . وقد استطاع الأب برجيه Bergier أن يكتب بعد ذيوع أمثال هذه الدراسات أن الناس يتشابهون « طالما وجدوا في ظروف واحدة » . ونصادف بعد ذلك تلك العبارة الغريبة التي كتبها دوكلو

(١)

Du culte des dieux fétiches, ou parallèle de l'ancienne religion de l'Egypte avec la religion actuelle de Nigritie, 1760.

عن عقيدة الآلهة الطوطمية - أو موازنة بين ديانة مصر القديمة وبين الديانات الحالية عند شعوب أفريقيا .

Duclos فيما كتب عن التجارب القضائية وهي أن «العقل الانساني أينما كان يحتوى على بذور الجنون وهذه البذور تنبت في كل بيئة من تلقاء نفسها» .

ولو أن دى بروس غنى بدراسة حياة المجتمعات من جميع نواحيها بدلا من أن يقتصر على دراسة ظاهرة الدين لاستحق دون منازع لقب مؤسس علم الاجتماع . ولكنى أعتقد أن من يستحق هذا اللقب هو آدم فرجسون Ferguson أحد علماء المدرسة الاسكوتلندية التى ينتمى إليها أيضاً روبرتسون وآدم سميث . ولقد كان لهذه المدرسة كثير من الآراء الجديدة المثمرة التى تركت فى عقول الناس أثراً خالداً . ويدين لها الفيلسوف الفرنسى بنجامان كونستان Benjamin Constant بكثير من الفضل حيث سافر للدراسة فى أدنبره وتعلم هناك « كيف يتأمل أخلاق الناس » . ولا نستطيع أن نذكر تأثير المدرسة الاسكوتلندية على زعماء الحركة المالية فى فرنسا « Les idéologues » الذين أثروا بدورهم على آراء جان باتيست ساي Jean-Baptiste Say وسان سيمون . وقد كتب روبرتسون فى « تاريخ أمريكا » أن التشابه فى العادات « نتيجة حتمية لحالة من التشابه فى تكوين المجتمع » . وإذا كان فرجسون (١٧٢٣ - ١٨١٦) قد استوحى متسكيو فى بعض آرائه فانه قد فاقه فيما وصل اليه من نتائج فلم يقتصر على التأكيد بل وضع مبادئه موضع التحقيق العملى وقام بمحاولة فى كتابته « تاريخ المجتمع المدنى » (١) تتبع فيها نماذج المجتمعات والأشكال المختلفة للنظم

(١)

Essay on the history of Civil Society, 1767.

وترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية فى ١٧٨٣ بعنوان .

Essai sur l'histoire de la Société Civile.

معتمداً في ذلك على المعلومات المستقاة من الإثنوغرافيا والتاريخ معاً .
وإذا كان « المتوحشون » يعيدون اليوم أمامنا حياة الماضي ونجد عن قبائل
الأروكووا Iroquois بعض العادات في اختيار رؤسائهم شبيهة بالعادات
التي كانت متبعة عند قدماء اليونان فإن ذلك مرده إلى أن الإنسان يتأثر في
طباعه بالمناخ وبنوع الحياة التي تسود في البيئة التي يعيش فيها . فلا معنى إذاً
لما انتشر في ذلك الوقت من « الروايات » عن حالة الطبيعة . فحالة التحضر
وكذلك حالة التوحش حالتان من حالات الطبيعة ويجب علينا إذا كنا نريد
أن نتوخى الحكمة أن نعدل نهائياً عن محاولة الوصول إلى الأصول
الأولى للإنسانية فليس لدينا من المعلومات الأكيدة ما يسمح لنا بمثل
هذا البحث . وليس أمامنا إلا أن نتصور هذه الأصول حين نلاحظ معيشة
المتوحشين في أيامنا هذه . هذا هو مبدأ الدراسة الوضعية الحققة . وقد
برزت هذه الفكرة كما قدمنا عند دي بروس . فلاجل أن نجتمع أشقات
تاريخ المجتمع ونميز بين أنواع المجتمعات يجب أن نلاحظ وأن نتأمل ومعنى
ذلك « أن نجتمع الحقائق بدلاً من أن تصور الاحتمالات والظنون » . هذا
العمل المجيد قام به فرجسون في مؤلفاته . وقد كان الناس قبل دي بروس
وفرجسون يتحسسون الطريق إلى هذه الحقائق ولكن بفضلهم استطاع
العلم أن يجني منها فائدة عملية . فأدجج الوصف في المقارنة واستخدمت المقارنة
للوصول إلى تفسيرات الظواهر الاجتماعية .

الفصل السابع

تاريخ علم الاجتماع

تابعاً : مرملة الأسيس

في القرن التاسع عشر تم تأسيس العلم الذي مهدت له محاولات القرون الثلاثة السابقة على ذلك القرن . إذ أحرزت الدراسات الانتوجرافية والتاريخية في ذلك القرن تقدماً كبيراً . وثبتت في الأذهان فكرة أن الجماعات الإنسانية تتوزع في نماذج وأنواع واضحة المعالم . ثم تأكدت بعد ذلك فكرة أخرى وهي أن المجتمعات ذات طبيعة ذاتية وأننا نستطيع تصنيفها كما نفعل بالنسبة لأنواع النباتات وأنواع الحيوانات ما دامت المجتمعات تتشابه أو تختلف فيما بينها بحسب الزمان والمكان : كل ذلك يدفعنا حتماً إلى أنواع من المقارنة بحيث نستطيع الوصول في النهاية إلى تفسير الظواهر الاجتماعية . تحدد هذا المنهج تمام التحديد في خلال القرن التاسع عشر وبرز في المقام الأول وكان ذلك بدء تأسيس علم الاجتماع الحقيقي .

ويمكن إرجاع السبب الحقيقي في تقدم ذلك العلم إلى تقدم دراسات « علم الحياة La Biologie » . ففي القرن الثامن عشر اصططبت دراسة الظواهر الطبيعية نهائياً بالصبغة العلمية (١) واختفت التأويلات التخمينية

(١) انظر كتاب مورنيه .

والعملية أمام منهج الملاحظة والتصنيف والتفسير العلمي. وأصبحت «قوانين» الطبيعة ذات معنى تحقيقي : فهي العلاقات التي توضحها لنا المقارنة فيما يتصل بظواهر المادة وظواهر الحياة . وقد كان لتقدم ذلك المنهج تأثير كبير على علم الاجتماع وساعد على ذلك الفكرة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت وهي أن المجتمعات أجسام شبيهة بالأجسام الحية . وقد أطلق على تلك النظرية كما نعرف باسم « النظرية العضوية L'organicisme » . ونستطيع أن نعثر على آثار لتلك الفكرة (أى فكرة تشبيه المجتمع بالكائن الحي) مبكرة هنا وهناك في مخلفات العصور القديمة وعلى الأخص منذ أواخر العصر الوسيط حتى جاء الوقت الذي أصبح فيه من البداهة أن يشير المرء إلى التشابه بين المجتمعات والأفراد في نموها واضمحلالها . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح في كتابات ابن خلدون وفي كتابات مكيا فيللي بعده بقرنين من الزمان . فهو يعالج في « حكاياته الفلورنسية » *Histoires florentines* شؤون المدينة كما لو كانت كائناً حياً ويصور تقدمها على نمط تقدم الإنسان . وجاء بودان وبوترو ومونتني . ثم بيكون وهوبز وبني ولوك . ثم تورجو ومايلي وروسو وكوندورسييه . وأخيراً فرجسون وجميعهم طاب لهم أن أن يعقدوا تلك المقارنة بين المجتمع والكائن الحي . وقد أصبحت تلك الفكرة بعد ذلك من التفاهة بحيث نقدها سبستيان مرسييه Sébastien Mercier على أنها « حقيقة مضللة » . وهكذا نرى أن الفكرة أصبحت عامة بأن الهيئات الاجتماعية كائنات حقيقية تسير حسب قوانين أو على الأصح تخضع لعلل ثابتة .

وقد تمت في أولى مراحل تأسيس علم الاجتماع مقارنة الظواهر . ثم جاءت بعد ذلك مرحلة الإيقان بوجود الأسباب وتبيلورت في المرحلة الأخيرة فكرة توضيح تلك الأسباب . هذه هي المراحل الثلاثة في تأسيس

علم الاجتماع وهى وإن اختلطت فى كثير من الأحيان إلا أننا توخياً
للوضوح سنتكلم عن كل منها على حدة .

١ - مقارنة الظواهر

عند ما كان رينان Renan فى حلقة الدروس الدينية حوالى سنة ١٨٤٠
أراد أن يكون لنفسه صورة واضحة عن الأزمنة القديمة التى ورد ذكرها
فى الإنجيل . ففكر توأ فى أنه يستطيع الوصول إلى ذلك إذا درس حياة
المتوحشين فى عصرنا الحديث . فانكب لهذا الغرض على دراسة النشرات
والملاحظات التى كتبها الآباء المبشرون وجمعت تحت عنوان : Annales
de la propagation de la foi . ومنها أخذ نظريته بأن الإنسان حيوان
دينى . فى هذا العصر تقريباً بدأت الدراسات المقارنة تنعش وتتقدم
بخطى ثابتة .

وكان عدد الرحالة قد أخذ يتزايد يوماً عن يوم ومعظمهم ممن عنوا
بالملاحظة ووضعوا الدراسة هدفاً أساسياً لهم واستعدوا لأداء ذلك الواجب
تمام الاستعداد . وقد ساهم فى هذه الحركة مساهمة فعالة التجار والمغامرون
والموظفون الدبلوماسيون ورجال الإرساليات الدينية . وازداد عدد
الأوربيين فى البلاد النائية حين تضاعفت حركة الاستعمار . على أن الجديد
حقاً فى هذا الشأن هو تنظيم « البعثات للدراسات البشرية » . وقد قامت
بجهودات حقيقية فى سبيل البحث العلمى . وقد كان المثال الأول لهذه البعثات
فى بدء ذلك القرن ، بعثة العلماء الذين أحضرهم معه نابليون بوناپرت
فى حملته على مصر فجمعوا خلاصة أبحاثهم فى مؤلف ضخم بعنوان « وصف مصر »

وكان ذلك المؤلف أول مجهود لمحاولات الكشف العلمى بعد الإعداد والتصميم . وهو مؤلف توافر على كتابته علماء مختصون وأعدت مادته بناء على مجموعات من الأسئلة الدقيقة questionnaire (١) وقد طبع بعد ذلك على نفس النمط كتاب « كشف الجزائر L'exploration de l'Algérie » وأنشئت مؤسسات عامة للقيام بمثل هذه الأبحاث . وأهمها مكتب أبحاث الأجناس البشرية فى واشنطن Bureau d'ethnologie الذى أسس فى سنة ١٨٧٩ . وأنشئ منذ زمن ليس ببعيد فى باريس معهد للدراسات البشرية Institut d'Ethnologie . وهكذا بفضل اتحاد هذه الجهود جميعاً استمر العمل فى كشف العالم البشرى على سطح هذه المعمورة وذلك بحسب ما سمحت به ظروف الفتح واستعمار البلاد الجديدة . ولا نستطيع فى هذه العجالة إلا أن نذكر الخطوات الهامة التى تمت فى كل ميدان وأن نشير إلى المؤلفات والوثائق التى لعبت الدور الهام فى المقارنات والتفسيرات . ويجب ألا ننسى أن ذلك الكشف قد تم فى وقت واحد فى جميع أجزاء العالم .

وأول الجهات التى خضعت للبحث العلمى هى منطقة الأرخيل وجزر

(١) العنوان الكامل لهذا المؤلف هو :

Description de l'Egypte, ou recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte.

وقد ظهرت الطبعة الأولى فى تسع مجلدات من الحجم الكبير مصحوبة بلوحات مصورة من ١٨٠٩ — ١٨١٣ . أما الطبعة الثانية فقد كانت فى ٢٤ مجلداً من القطع الثانى مصحوبة بلوحات من الحجم الكبير (١٨٢١ — ١٨٢٩) وقد قام Baring بعمل جداول تحليلية لهذا المؤلف الضخم فى ١٨٣٨ وقام أيضاً بنفس العمل لتين كورب فى ١٩١٧ . أنظر على الخصوص فى المجلد الثامن عشر : دراسة عادات السكان فى مصر الحديثة وهى مكتوبة بقلم دى شابرول De chabrol .

المحيط الهادى . وقد ظهرت فى وقت مبكر وثائق هامة عن تلك الجهات نذكر منها : « أبحاث فى بولينيزيا » Polynesian Researches للعلامة إيليس Ellis (١٨٢٥) ، « والميثولوجيا البولينيزية » Polinisia Mythology للعلامة جراى Grey (١٨٥٥) . واهتم العلماء بعد ذلك بوصف حضارات سكان استراليا فيكتب فيزون وهويت عن قبائل « الكاميلاروى والسكورناى » Kamilaroi & kurnai (١٨٨٠) . وظهرت بعد ذلك الوثائق التى كتبها العالمان سبنسر وجيلين ووثائق البعثة التى أرسلت إلى مضيق تورين وقد استغلت هذه الوثائق أحسن استغلال وعتب عليها المعقبون وكلنا يعرف المكان الهام الذى احتلته الدراسات الخاصة باستراليا فى علم الاجتماع ، وخصوصاً فيما يتعلق بمسائل القرابة ومعنى العشيرة clan والقبيلة Tribu وفكرة « الطوطم » le totem .

وجاء بعد ذلك دور التوغل فى مجاهل أفريقيا . وقد زودنا استعمار الجزائر ثم المناطق الاستوائية بكثير من المعلومات والوثائق الجديدة . فتوافر على دراسة قبائل البربر فى الجزائر هانوتو Hanoteau ولتورنو Letourneux (١٨٦٦) ثم تبعهم فى ذلك العلامة ماسكيرى Masqueray وهو النموذج الكامل للعالم المدقق الذى يستغل مواهبه فى الملاحظة والمقارنة . وأخذت حركة وصف الشعوب تتقدم شيئاً فشيئاً فى جميع أنحاء أفريقيا . وتقدم علماء أمثال : إيليس ، دينت Denet ، وراتراى Rattray ، ودوفرييه Duveyrier ، وفورو Foureau ، ودلافوس Delafosse بغذاء وافر للعقول المنشوقة إلى حب الاستطلاع .

أما مناطق أمريكا وآسيا فلم يتم كشفها العلمى إلا بعد ذلك بمدة طويلة . ومع ذلك فمنذ سنة ١٨٨٠ أصبحت هذه المناطق أعظم مراكز البحث العلمى الخصب . فقام فيها علماء من أمثال دورسى Dorsey ، وكشينج Cushing ،

وبوس Boas بأبحاث عظيمة للغاية استفاد منها واستخدمها من جاء بعدهم من العلماء. وما زالت هناك موضوعات كثيرة لم تبحث بعد. ولكن بالرغم من ذلك فإن العالم لم يشهد من قبل مثل هذه الحركة النشطة التي تجمع فيها في أقل من قرن واحد كنز ثمين من الأبحاث والوثائق العلمية.

وقد استخدمت هذه الأبحاث والوثائق في كتابة مجموعات شاملة للدراسة الاجتماعية. فأصدر فايتز waitz مؤلفا ضخما في ستة أجزاء بعنوان «دراسة بشرية لطبيعة الشعوب» Anthropologie des Naturvölker (١٨٥٩-١٨٧٢) وأصدر لاثام Latham كتابا بعنوان: «الأنثولوجيا الوصفية» Descriptive Ethnology (١٨٥٩). وأحس سبنسر بضرورة إصدار كتاب يلمشع الدراسات المبعثرة فنشر كتابه «علم الاجتماع الوصفي» Descriptive Sociology (١٨٧٣ - ١٨١٠) في ثمان مجلدات من الحجم الكبير. وقد احتوى هذا المؤلف الضخم على أهم العناصر التي استخدمها الكاتب فيما بعد في كتابه «مبادئ علم الاجتماع». وقد كان أهم عمل قامت به المدرسة الإنجليزية للدراسات البشرية هو جمع الوثائق والمعلومات. ومن أهم هذه المجموعات المؤلف المشهور «الغصن الذهبي» The Golden Bough الذي كتبه السير جيمس فريزر وهو مجموعة ضخمة للمعتقدات والعادات عند الشعوب البدائية استفاد منها من كتبوا في هذه الموضوعات فيما بعد. وقد احتوى هذا الكتاب أول ما ظهر في سنة ١٨٩٠ على جزأين ولكنه الآن يتألف من اثني عشر مجلدا (١). وكان أدولف بستيان أيضا من أعظم الرحالة الذين عنوا بإصدار المجموعات العلمية (٢). وجاء بعده راتزل

(١) أنظر الطبعة الفرنسية المختصرة بعناوت :

Le Rameau d'or, in-4o., 1924.

(٢) أنظر مختصرا لكتاباتة في مجلة :

Revue Philosophique, XIII, P. 544-550, 1882.

Ratzel فنشر مؤلفه بعنوان « الأجناس البشرية Volkerkunde » في ثلاثة مجلدات (١٨٨٦). وقد ظل هذا الكتاب موسوعة عامة لا يستطيع أحد أن يستغنى عنها حتى ظهر أخيراً كتاب ج. بوشان Buschan. (١) واتسع أفق البحث بعد ذلك إلى ما لا نهاية وبعد بالناس العهد الذي كانوا يفغرون فيه أفواههم دهشة عدد محاولة تيلور Taylor سنة ١٨٧٥ التقريب بين الفن الصناعى عند سكان تسانيا وعند قبائل ما قبل التاريخ في العصر الشيلي. وهكذا يستطيع الآن أن تؤكد أن علم الأجناس البشرية قد استطاع أن يوضح التاريخ ويضىء جوانبه المظلمة.

لم تكن هذه الدراسات ذات الطابع العام إلا اتصالاً وإتماماً للعمل الذى بدأ منذ أزمنة بعيدة. على أن هناك ما يتميز به القرن التاسع عشر بصفة خاصة ففیه عم استخدام المنهج المقارن فى دراسات محددة. واستخدم الإخصائيون هذا المنهج الذى ثبتت صلاحيته فى الكشف عن ظواهر بالذات : وعلى الأخص فى دراسة القانون والديانات.

أما دراسة القانون المقارن فقد كان مركزها الرئيسى فى ألمانيا ثم فى فرنسا (٢). وقد ظل الناس مدة طويلة يرجعون إلى القانون الرومانى وتفسيراتهم ولم يستطيعوا الخروج عنه حين رسموا لأنفسهم صورة عن القوانين التى سميت بالبداية.

(١) أنظر المراجع العامة فى نهاية الكتاب.

(٢) أنظر :

F. Pollock, *The history of Comparative Jurisprudence*, Journal of the Society of Comparative Legislation, new Series V, 1903; et H. Hayem, *L'Etude du droit comparé*, Revue trimestr. de droit civil, 1909.

وكان سافيني Savigny نفسه يأنف من الرجوع إلى نتائج الإثنوغرافيا في مقارناته . وظل الطابع الروماني ماثلاً بوضوح حتى في اختيار الأسماء التي أطلقت على بعض النظم البدائية . فاحتفظ سمنر مين Sumner Maine ، ومورجان ، ودوركيم بكلمات مثل « القبيلة tribu » و « الأسرة الأبوية » gens مثلما احتفظوا بالكلمة اليونانية phratry (ويقصد بها اتحاد العشائر) . ولكنهم استخدموا هذه الكلمات في معانٍ أوسع نطاقاً من معانيها الأصلية

على أن الأمر لم يلبث أن تحول بسرعة وأقبل العلماء على دراسة النظم والتشريعات عند الشعوب البدائية دراسة مباشرة دون أن يتوقفوا لذلك عن دراسة القوانين من الناحية التاريخية . وقد أدت هذه الدراسة إلى الكشف عن مجموعات قديمة للقوانين مثل مجموعة حورابي ملك بابل (١٩٠٣) . ثم نهت دراسات جريم Grimm العلامة ميشليه Michelet فأصدر في سنة ١٨٣٧ كتابه عن « أصول القانون الفرنسي مستقاة من رموز وصيغ القانون العالمي Origines du droit français, cherchées dans les symboles et formules du droit universel » وقد كان هذا البحث من الأبحاث الطريفة حقاً في القانون المقارن وأخذت فيه دراسة التشريعات الهندية نصيباً كبيراً . وظهر في فرنسا ليرمينيه Lerminier ولا بوليه Laboulaye ، وداريست Dareste ، وفي إنجلترا سمنر مين ، وماك لينان ، وفي أمريكا مورجان ، وفي سويسرا باخوفين Bachofen وهؤلاء جميعاً وضعوا أسس الدراسة المقارنة لنظام القرابة وحقوق الأسرة (١)

(١) أنظر :

Sumner Maine, *Ancient Law*, 1861; Mac Lenan, *Primitive Marriage* 1865; Lewis Morgan, *Ancient Society*, 1877; Bachofen, *Das Mutterrecht* 1861.

وقاموا بدراسات مستفيضة عن النظام الذي تسود فيه سلطة الام matriarcat وعن نظام العشيرة clan والقبيلة . أما في ألمانيا فقد عني يهرنج Jhering وبوست Post ، وكوهلر Kohler بوضع بيانات منسقة ظهرت فضل الدراسات البشرية (الإثنوغرافيا) على الدراسات التاريخية للقانون .

ومن ناحية أخرى تقدمت الدراسات المقارنة للأديان بخطوات لا تقل في سرعتها عن تقدم الدراسات القانونية (١) . ففي نفس الوقت الذي ظهر فيه كتاب بنيامين كونستان Benjamin Constant القيم « عن الدين » كان أوتفريد مولر يواصل جهوده لتأسيس علم الأديان المقارن (٢) . فأكد أن العقائد والأساطير من ابتداع الفكر الشعبي وأنه لذلك يمكن تفسيرها في ضوء المناخ والوسط اللذين يطبعان هذا الفكر بطابعهما . وهكذا شرع في تفسير هذه العقائد على أسس ومبادئ تحقيقية . وجاء بعده ماكس مولر ، وروبرتسون سميث ، وفريزر فجمعوا كثيراً من المعلومات تمهيداً لبحثها وتفسيرها . ومن الغريب حقاً أن يكون الفضل في معظم النتائج والتفسيرات التي وصل إليها علم الاجتماع في العصر الحديث راجعاً في أغلب الأمر إلى مؤرخي الأديان .

(١) أنظر هاردى : « بحث في التاريخ المقارن للديانات »

Hardy, Zur Geschichte der Vergleichenden Religionsforschung, Archiv fur Religion swissenschaft, 1901.

وأنظر أيضاً :

Pinard de la Boullay, L'Etude Comparée des Religions, 1922.

(٢) أنظر كتابه : « مقدمة في علم دراسة الاساطير .

Prolegomena zu einer Wissenschaftlichen Mythologie, 1825.

وقد كتب ريفيل Réville تحليلاً مسهباً لهذا الكتاب في مجلة تاريخ الأديان .

Revue de l'histoire des religions, 1884.

عندما تجمعت هذه الوثائق في أيدي علماء الاجتماع تقدموا غير هيا بين نحو تفسير الظواهر الاجتماعية وشجعهم على ذلك ما شاهدوه من تقدم العلوم الطبيعية . ولكنهم اقتصروا في بادئ الأمر على التأكد من وجود الأسباب قبل محاولة بحثها وبيان حقيقتها . فما لا شك فيه أن الإيقان بوجود الأسباب لا بد أن يسبق تبيانها .

٢ - الإيقان بوجود الأسباب

اهتم علماء الاجتماع في بادئ الأمر باعلان حقيقة هامة وتأكيدا وتثبيتا في الأذهان : هذه الحقيقة هي أن الظواهر الاجتماعية تخضع لأسباب محددة . ولكنهم وقفوا مدة طويلة عند هذا الحد دون أن يحاولوا أن يتجاوزوه إلى البحث عن هذه « العوامل المسيطرة على ظواهر المجتمع » وتقريرها . وقد رأينا من قبل كيف واصل روبرتسون وفرجسون جهود متسكيو وزادوا عليها وقد كانت آراؤهم حاسمة في هذا الصدد وخاصة فيما قرروه من الصلة بين « عادات الناس وأمزجتهم » وبين « الحالات المختلفة لغريزة التجمع » . وقد أصبحت بعد ذلك فكرة الضرورة التي تسيطر على الظواهر الاجتماعية محور أساسياً وعاملاً فعالاً تدور حوله جميع الأبحاث الاجتماعية . ولم تكن فكرة « القوانين » عند متسكيو على ما يظهر إلا تأكيداً لعلاقات حسن الجوار وتحكيم العقل وأصول العدالة التي يجب أو يتعين أن تسود بين الناس . أما « المناليون » الذين ذاعت آراؤهم منذ سنة ١٨٠٠ وجاء من بعدهم سان سيمون وأوجست كومت فقد كانت فكرة القوانين لديهم تحدد علاقة التبعية والصلة الوثيقة بين النتائج وأسبابها .

ويلوح أن هذه الفكرة قد انتشرت في فرنسا منذ أواخر القرن الثامن

عشر على أيدي هؤلاء « المثاليين » فقد كان هؤلاء إلى جانب تمسكهم وتشددهم في الخضوع لقوانين العقل يولون الملاحظة عناية كبرى . وقام أحدهم ، ويدعى دى جيراندو بوضع قائمة من الأسئلة questionnaire لدراسة أحوال القبائل المتوحشة . ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام فولنى Volney (١) وكابانى cabanis . وقد كان فولنى مؤرخا وعالمًا لغويًا كما كان مولعًا بالأسفار فجاب بلاد الشرق وقام بزيارة إلى جزيرة كورسيكا وعاش مدة في العالم الجديد وهناك قام بوضع كتاب عن الألفاظ المستعملة في لغة الهنود الحمر .

وكان عند ملاحظته هؤلاء الهنود يفكر في قدماء اليونان كما وصفهم تيموسيديد كما كان الفكر يذهب به أيضا إلى قبائل البدو وسكان كورسيكا وقد كان من أوائل من سبقوا إلى دراسة أحوالهم . فعقد المقارنات بين هذه الشعوب ولاحظ أوجه الشبه كما عنى على الخصوص بتوضيح أوجه الاختلاف التي ترجع في نظره بصفة خاصة إلى اختلاف البيئة وطبيعة الأرض . فدلل بذلك على نظريته الفاحصة وإلمامه التام بأبسط الأشكال للحياة في المجتمع . وقد ذهب على وجه الخصوص إلى أن التشابه بين هذه الشعوب قد يكون نتيجة « للتشابه الناتج عن تأثيرات المناخ والتربة والأغذية والعادات » . وعلى الجملة فقد عرف كيف يستخلص الدرس المفيد من ملاحظاته حين قرر أن الإنسان يخضع في تصرفاته لعوامل مسببة .

ثم قام جان بابتيست ساي وسان سيمون في ذلك الوقت نفسه بتحديد فكرة وجود الأسباب الاجتماعية تحديداً واضحاً قوياً .

أما « ساي » فقد كان هو نفسه « مثالياً » وكان كما بينا من قبل أحد أتباع آدم سميث وبالتالي أحد أنصار المدرسة الاسكوتلندية وهى المصدر

(١) اقرأ في مؤلفاته .

Observations générales sur les Indiens ou sauvages de l'Amérique-Nord (1795), édition Didot, 1846.

الحقيقى لما ذاع فى ذلك الوقت من أفكار علمية حول دراسة الأخلاق والمجتمع . وقد كتب فى سنة ١٨٠٣ موسوعة فى الاقتصاد السياسى عرض فى مقدمتها للطبيعة التجريبية للعلوم الأخلاقية . وكانت كلمة « تجريبية » هذه فاتحة عهد جديد فى دراسة هذا النوع من العلوم . فمن المعروف أن « العلم يقوم بأكمله على الحقائق اليقينية » ولا سبيل لنا لمعرفة هذه الحقائق إلا عن طريق « معرفتنا للصلات التى تجمع بينها » . ولم لا تكون دراستنا للعلوم الاقتصادية شبيهة بدراستنا للكيمياء أو علم وظائف الأعضاء؟ (١) . وهكذا تم لعلم الاجتماع حقاً أن يضع قواعد ، ويعلمها للملا ، على أن « سأل » شأنه فى ذلك شأن سان سيمون لم يحاول مطلقاً أن يطبق هذه القواعد . ولم يشرع كما فعل سميث فى القيام بدراسة مقارنة للمجتمعات تؤدى إلى الكشف عن أسباب الأحداث التى تحدث فيها . ولكنه اقتصر على المناادة بوجود هذه الأسباب ولم يفعل سوى أن أكد الصلة الوثيقة بين النتائج وأسبابها وهى أساس المنهج المقارن (٢) . وكان يعتقد أن الضرورات

(١) أنظر كتاب سأل فى الاقتصاد السياسى .

Traité d'économie politique 1803.

وفى هذا الكتاب يسمى المجتمع « أجساماً حية » ويسمى الاقتصاد السياسى « فسيولوجيا المجتمعات »

(٢) أنظر كتابه الصغير عن ملاحظاته عن أحوال الناس والمجتمع :

Petit Volume contenant quelques apperçus (sic) des hommes et de la Société, in-32o., 1817.

(فى هذا الكتاب يذكر أن الوشم عند متوحشى بحار الجنوب وإرسال الشارب عند متوحشى أوروبا يعبران عن معنى واحد)

والمبادئ الجبرية التي تخضع لها الحياة داخل نطاق المجتمع بسيطة لا تعقيد فيها ونظر إليها على أنها قوانين لا سبيل للطعن فيها .

أما سان سيمون الذي اشتهر بالنزعة الإصلاحية فقد كان يشعر في بعض الأوقات شعوراً قوياً بوجود أسباب وقوانين تسيطر على الجماعات الإنسانية . وكان يعتقد فكرة تأسيس علم لدراسة المجتمع . ولكنه سرعان ما تحول عن هذا المبدأ حيث وجد أنه لا يتفق مع آماله وطموحه . ودفعت به عاطفته القوية إلى أن « يعيش في المستقبل » بدلا من أن يدرس الحاضر . ولم يكن أكثر من جان بابتيست ساي اهتماما بتحقيق هذه الفكرة الخاصة - أي فكرة تأسيس علم للظواهر الاجتماعية - تلك الفكرة التي لا يغذيها إلا الملاحظة الدقيقة والدراسة المستمرة لأحوال الناس وعاداتهم . وانتهت أبحاث سان سيمون إلى نوع من التصوف : وظن في نفسه أنه المسيح المنتظر (١) . وإن يكن - كما قلنا - قد طالب في كتاباته الأولى وصاغ في عبارات قوية رغبته في تأسيس علم الاجتماع .

فمنذ سنة ١٨٠٢ أو ١٨٠٣ كتب في « خطابه من جنيف » بأنه يجب أن « ننظر إلى العلاقات الاجتماعية كما ننظر إلى الظواهر الفسيولوجية » ويجب بناء على ذلك أن نطبق على دراسة هذه العلاقات الوسائل العلمية المتبعة في العلوم الطبيعية . وتلك تماما هي قاعدة وأساس الدراسة التحقيقية فالمجتمعات إنما هي حقائق خارجية فيجب إذن أن تسير هذه الحقائق وفق قوانين ثابتة . وقد كتب سان سيمون بعد ذلك أن المجتمع « كائن عظيم » . ولكن هل هذه الفكرة وليدة عقله ؟ أو أوجدها - كما قال البعض - عن

(١) أنظر :

طريق الحدس ؟ نحن لا نعتقد ذلك فقد كانت معلوماته سطحية ولم يكن لديه الفراغ الكافي للقراءة . ولا نستطيع بأى حال أن نقارن ثقافة سان سيمون بتضلع وعمق عالم مثل منتسكيو أو فرجسون أو آدم سميث . ومن المظنون أن سان سيمون كان يختلف قبل أن تظهر كتاباته هذه بعدة سنوات إلى حلقات واجتماعات جماعة « المثاليين » وهناك عثر على فكرته هذه وأذاعها في كتاباته . وكانت هذه الفكرة « فى الجو » حوالى سنة ١٨٠٠ . وقد بينت فيما سبق كيف أصبح من البدهاة بعد ذلك تشبيه المجتمعات بالكائنات الحية (١) . وكان من الطبيعى أن تكون نتيجة هذا التشبيه المناداة بتطبيق المنهج المتبع فى دراسة علم الحياة على دراسة المجتمعات . أو لم يكتب كاباني منذ سنة ١٧٩٦ أن العلاقات الخلقية « بالنسبة لعالم الأخلاق كظواهر الحياة الطبيعية بالنسبة للطبيب ؟ » وأنه حينئذ يمكن أن نتعرف على الحالات الخلقية المختلفة عن « طريق الملاحظة » وأنا إذا فعلنا ذلك فسوف تدخل الدراسات الإنسانية فى حظيرة الدراسات الطبيعية وتصبح فرعاً من التاريخ الطبيعى للإنسان . وقد استخلص كاباني من ذلك النتيجة الحتمية وهى أن « فن إجراء الملاحظات ومحاولة التجارب واستخلاص النتائج اليقينية منها يجب ألا يختلف بالنسبة للعلوم الإنسانية عن الوسائل التى يجرى بها العمل كل يوم فى العلوم التجريبية » (٢) . ويجب

(١) أنظر كتاب المؤلف .

La Sociologie chez les économistes, Revue du mois, 1911.

(٢) أظنما كتبه كاباني من العلاقة بين الناحية العضوية والناحية الخلقية عند الانسان *Rapports du physique et du moral de l'homme, 1843.*

وقد عرض بيضا Bichat فى نفس الوقت إلى الفكرة المضادة أى إلى تأثير الظاهرة الاجتماعية على الصفات العضوية . أنظر مؤلفه :

Recherches physiologiques sur la vie et la mort, in-8o., 1ère. partie, P. 130, sequ., 1802.

وهكذا نرى سريان الفكرة فى محاولة ربط الاجتماع بالبيولوجيا .

أن ننوه هنا أن هذه المذكرات ، بعد أن قرئت في المجمع العلمي ، ظهرت في مؤلف في سنة ١٨٠٢ بالذات . وبعد مضي فترة وجيزة من الزمن نجد سان سيمون يردد نفس المعاني دون أن يزيد عليها وضوحاً أو تأكيداً . فلم يكن ما جاء به إلا صدى رددته أصداء أخرى نذكر منها : دي مايستر وبونالد وبلائش وقد عبروا جميعاً عن الفكرة نفسها . ولم يكونوا خيراً من سان سيمون حين لم يتورعوا من تقرير مبدئهم العلمي ثم تركوه وراءهم ظهرياً وساروا وراء أوهامهم وأحلامهم . ولم تكن فكرة العلم لدى سان سيمون وإياهم إلا فكرة عابرة تمر بأذهانهم في فترات متقطعة ولتكرر مرة أخرى أن فولني وكاباني هما اللذان وضعنا في فرنسا - قبل سان سيمون وخيراً منه - أسس علم الاجتماع وذلك تحت تأثير تقدم العلوم الطبيعية . ونحن لا ننكر أن سان سيمون كانت له نظرة خاصة في التاريخ استشف من ورائها فكرة الضرورة والحتمية . ونراه حين يعرض برنامج موسوعته الجديدة في سنة ١٨١٠ يتكلم عن فكرة الحتمية في تقدم الإنسان ولكن أليست هذه هي الفكرة التي عالجها فيكو Vico وهردر Herder من قبله ؟ ومع ذلك فنحن لا نغفط سان سيمون حقّه ونرى أنه بحق أحد بناءة فلسفة التاريخ حين أذاع نظريته المشهورة عن تطور المجتمع حسب فترات عضوية périodes organiques وفترات حرجية périodes critiques (١) وحين نظر إلى الديانات نظرة شاملة وقرر مبدأ تطورها من الفكرة الخرافية fétichisme إلى فكرة تعدد الآلهة polythéisme ثم إلى فكرة الإله الواحد monothéisme وهي آخر ما استقر عليه تطور الدين . وكذلك

(١) يمر المجتمع في تطوره بفترة استقرار وهندوء وهي ما عبر عنه سان سيمون « بالعضوية » تليها فترة نزوع وتوثب نحو حالة جديدة وهي ما عبر عنها « بالحرجة » وهكذا على التوالي .

المرجع

حين قرر مبدأ التقدم بوجه عام من النموذج الإقطاعي type féodal إلى النموذج الصناعي type industriel . كل هذه ولا شك آراء ونظرات خصبة ولكنها لسعتها وعموميتها تتعدى نطاق العلم (١) . وقد كان شأن الفيلسوف سان سيمون شأن فيكو : كل منهما يطمئن إلى ما يقدمه من مبادئ وآراء ولا يهتم بتاتا بأن يقيم هذه الآراء على أسس من مقارنة الظواهر . ألم يقل سان سيمون أن الأبحاث حول تاريخ الهنود والصينيين لا تستحق « أن تشغل الأذهان الناضجة » لأنها أبحاث تتصل بشعوب « ما زالت في دور الطفولة ؟ » ولذلك فهو يشيح بوجهه عن هذه الأبحاث ويهملها كما أهمل كل ما يتعلق بالعصور القديمة قبل عصر سقراط . وهو يتحدى التاريخ نفسه حين يجد أن التاريخ يعرقل مبادئه . ومهما يكن من من طرفة آرائه حول التقدم وتأثيرها في النفوس فإنها تستظل دائما ثمرة للحدس والأخيلة الوهمية .

وما قلناه عن سان سيمون ينطبق في مجموعه على أوجست كومت فقد تأثر هذا الأخير كثيرآ بآراء الأول وتعاليمه (٢) بدأ أوجست كومت بداية طيبة سجل

(١) العلم يبحث الجزئيات ويقرر حقيقتها قبل أن يصل إلى التعميم ولكننا نرى أن سان سيمون كان يقفز رأسا إلى النظريات العامة دون أن يقيمها على أساس ثابت من الاستقراء العلمي . (المترجم)

(٢) أهم مؤلفات أوجست كومت هي :

Cours de philosophie positive, 6 vol., in-8o., 1830-1842. Et *Système de politique positive*, 4 Vol., in-8o., 1851-1854.

ومن المؤلفات التي كتبت عن أوجست كومت اقرأ :

Lévy-Bruhl, *La philosophie d'Auguste Comte*, in-8o., 1900 ;
Faguet, *Politiques et moralistes du XIXe. siècle*, II, P. 281-369 ;
Delbos, *La philosophie française*, in-16o., 1919.

وهناك أيضا دراسة تحليلية قيمة بقلم بلانشارد في مجلة علم النفس .

P. Blanchard, dans *American Journal of Psychology*, 1918.

فيها بقوة ووضوح أن المجتمع له قوانينه وأنه جزء من العالم الطبيعي ولذلك فإن علم الاجتماع يجب أن ينظر إليه على أنه نوع من الطبيعة *une physique* أما التاريخ فإنه في نظره يجب أن يكون « البحث عن القوانين التي تسيطر على التقدم الاجتماعي للنوع الإنساني ». وقد حاول أن يتلمس الوسيلة لهذا البحث فقال: « إن جميع درجات الحضارة التي مرت بها الإنسانية موجودة الآن على سطح الكرة الأرضية ابتداء من الدرجة الدنيا عند متوحشي نيوزيلندة حتى الدرجة العظمى التي تتمثل في حضارة الشعوب الأوروبية الحديثة كالفرنسيين والإنجليز. وعلى ذلك فأننا نستطيع أن نصل إلى التسلسل الزمني عن طريق عقدنا للمقارنات المكانية (١) »

لم يصل أحد من قبل إلى أن يقول خيراً من هذا الكلام الذي يرسم الخطة بوضوح أمام العالم الاجتماعي والحقيقة أن هذا البرنامج كان أحوج ما يكون لمن ينفذه. ولكن أوجست كومت للأسف كان شديد اللفه نحو « إعادة اصلاح المجتمع ». فلم تدم نزعة العلمية الصرفة أكثر من وميض البرق وكذلك كان الحال عند صديقه سان سيمون. واتجه بفكره توأ نحو الناحية العملية. وكان يصادف في طريقه من آن لآخر بعض الحقائق فيسجلها. مثال ذلك ما سجله عن الأصل الديني للنظم الأخلاقية والقانونية. ولكنه - مثل زميله سان سيمون أيضاً - سرعان ما طرح وراءه تلك الطريقة المقارنة التي لاحت له في أفق العلم وآمن بفائدتها وذلك حين وجد أن تلك الطريقة تعرقل ما يقوم به من مشروعات وتنبؤات للإصلاح. وأعلن بعد ذلك أنه سوف لا يهتم في أبحاثه إلا « بالجانب الأعظم من الجنس الأبيض » حيث يستطيع تطبيق قوانينه وبخاصة

قانون الحالات الثلاثة . وهو لا يهتم به كمصلح يعرف كيف يؤدي واجبه إلا دراسة العوامل التي وصلت بمجتمعاتنا الحديثة إلى حالتها الراهنة . وهو يستشع في بساطة أن تطور المجتمعات الأخرى لا بد قد توقف ما دامت هذه المجتمعات لم تسير « ركب التقدم » الذي رسم خطوطه (١) . وقد كانت هذه النظرة عودة إلى الوراء بالنسبة لما حققه باحثو القرن الثامن عشر . إذ كانت نظرة منتسكيو وفرجسون وآدم سميث أوسع وأعمق من ذلك بكثير . وكانت تحذوهم في أبحاثهم الرغبة الحقة في البحث والتعمق . أما أوجست كومت فإن عظمته تنحصر في مقدرته العقلية على التركيب la synthèse وعلى بناء النظريات . ولكن علم الاجتماع لم يجد فيه عاملاً ينهض بشئونه . ومن الغريب أن نرى أن المؤرخين أنفسهم الذين عاشوا في زمن كومت كانوا يحقرون الدراسة المقارنة . فلم يكن سافيني savigny يؤمن بتاريخ القانون المقارن وكان يعتقد أن كل محاولة لعقد المقارنات خارج نطاق القوانين الرومانية والمبتبرة إنما هي محاولة عقيمة . ولذلك فإن هذا العصر قد رجع كثيراً إلى الوراء . ولم تعد الدراسات المقارنة للالتعاش إلا على يد جريم وميشليه بصفة خاصة وذلك في سنة ١٨٣٧ .

(١)

Cours de philosophie positive, t. V, P. 1 seq.

يجب أن نعترف لإميل فاجيه الناقد الأدبي بما رآه حقا من أن فلسفة كومت التاريخية شأنها في ذلك شأن فلسفة بوسويه . قد أغفلت عمدا النظر بعين الاعتبار إلى نصف أو ثلثي أجزاء العالم . وقد كانت كومت ينظر إلى المقارنة على أنها « مصدرا يؤدي إلى تعقيد الأمور والخلط بينها وذلك عند البحث عن القوانين الحقيقية للتجمع الانساني ولم يكن كومت يميل إلى الدراسة الوئيدة المثابرة بل كان يتعجل الحصول على النتائج .

ولكن هناك مبدأ أصبح بعد ذلك مقبولا : وهو أن المجتمعات حقائق تاريخية ترجع في تطورها لأسباب يمكن للباحث أن يبحث عنها ويكشفها .
 لم يكن تأكيد هذا المبدأ عبثا : وقد قام الفلاسفة بكل تأكيد بالدور الأعظم في هذه الخطوة . وأقام سبنسر في إنجلترا وإسبيناس Espinas في فرنسا الصرح الشامخ على هذا الأساس المكين الذي لا يقوم علم للمجتمع بدونه .

أما وقد أيقنا الآن بوجود أسباب للظواهر الاجتماعية فقد بقي علينا أن ننظر في كيفية توضيحها .

٣ - بيان الأسباب

لنعد هنا خطوة إلى الوراء فقد ذكرنا من قبل أن المراحل الثلاثة التي نتكلم عنها في هذا الفصل تتشابه ويتداخل بعضها في البعض الآخر .

حاول المفكرون منذ أزمنة بعيدة أن يفسروا بعض الظواهر الخاصة بأسبابها وأن يثبتوا أن هذه الظواهر تخضع لقانون الجبرية ولا تسير حسب الصدفة . ولم يهمل فلاسفة العصور القديمة أنفسهم هذه المحاولات . ألم يعدد أفلاطون في الكتابين الرابع والخامس من مؤلفه عن « القوانين Les Lois » العناصر التي تتحكم في الإنسان وهي : سطح المكان والموقع والتربة والماء والسماء ؟ ثم ذكر بعد ذلك عوامل إنسانية كالتهذيب والتعليم والتقاليد أيضا (١)

(١) أنظر مقال روبان .

على أنه يجب ألا نغالى فى تقدير قيمة هذه العوامل عند أفلاطون إذ أنها تخضع جميعاً فى النهاية لقوة الأرواح والآلهة .

وأفضل من هذا ما نراه عند تيوسيديد المؤرخ فقد حاول أن يكتب التاريخ كتابة علمية وأن يوضح ويفسر أعمال الجماعات ولكن كل هذا يؤول فى النهاية إلى نوع مبسط من دراسة «سيكولوجية الشعوب» أماتأثير الأسباب المادية فقد ظل مجهولاً مدة طويلة .

هذه الأسباب المادية هى أول ما اهتم بالبحث عنه العصر الحديث . وكان تأثير المناخ وطبيعة الأرض أسبق العوامل إلى أذهان المفكرين . وبحث العلماء واعتقدوا أنهم اهتموا إلى العوامل المتحركة فى الإنسان حين أظهروا درجة خضوع الجماعات الإنسانية لتأثيرات المكان والوسط الطبيعى .

واقترنت المسألة فى بادىء الأمر على تسجيل بعض الملاحظات البسيطة فلم يخف على أذهان بعد القدماء تأثير المناخ وطبيعة الأرض . وعرض الكثير منهم لهذا الموضوع دون أن يقفوا طويلاً لتأمله ودراسته (١) . واكتفوا بتسجيل هذا التأثير على المزاج الفردى أو الجمعى أو بتسجيل هذا التأثير على المزاج الفردى أو بتسجيل نتائجه على عادات الشعوب وأخلاقها ومن قبيل ذلك ما أرتآه الفيلسوف اليونانى لوسيان من تفسير حالة البداوة

(١) اقرأ فى هذا الموضوع :

J. L. Heiberg, *Théories antiques sur l'influence morale du climat*, Scientia XIV, Juin 1920.

واظر كذلك قائمة المراجع المذكورة فى رسالة لومبارد من « الأب دويوس »

Lombard, *L'abbé Dubos*, in-8o., 1913.

وهذه القائمة يمكن إضافة الكثير إليها .

بظروف المسكان . وفسر الأفريقي مانيليوس في القرن الأول اختلاف صفات الشعوب باختلاف الجنس وتأثير المناخ . وقام أرسطو وبلين Pliny وغيرهم بمحاولات مماثلة . ولم يفت من كتبوا بعد ذلك في فلسفة التاريخ أن يسجلوا بعض الملاحظات العابرة عن تأثير المناخ .

ثم جاءت بعد مرحلة التسجيل مرحلة البيان démonstrations والتعليق والتفسير الحقيقية . واستعان العلماء على ذلك بوسائل التدليل والإقناع أو على الأقل بذكر المشاهدات التي توضح آراهم . وكان بودان والاب دوبوس ومتسكيو أول من أقام بحق تفسير الظواهر الاجتماعية على هذا الأساس . فاعتمد متسكيو في تفسيراته اعتماداً كلياً على تأثير المناخ : فالهبة وتحريم الخمر والميل لتعدد الزوجات وحتى أشكال الحكومات نفسها ، كلها في نظره نظم اجتماعية تتأثر بطبيعة المناخ . وقد قامت خلال القرن الثامن عشر مناقشات حادة حول تأثير الأسباب الطبيعية Causes physiques والأسباب الخلقية causes morales وأياً أكثر فاعلية (١) . وهكذا نجد أن فكرة الأسباب قد تغلغت في صميم علم الاجتماع . ويلوح أن العقل البشري قد تأثر في بادئ الأمر وخضعت كبرياؤه أمام تأثير الظواهر المادية وهي الأكثر ظهوراً والأقوى فاعلية . وظهرت في هذا الموضوع كتابات كثيرة اقتصرت على البحث في تلك الأسباب . فكتب

(١) أنظر في هذا الموضوع مثلاً :

Castillon, *Des causes physiques et morales...*, in-16o., 1759.

وفي القرن التاسع عشر كتاب برتشارد .

James Prichard, *The natural history of man, comprising inquiries into the modifying influence of physical and moral agencies on different tribes of the human family*, in 8o., 1843.

وهذا الكتاب مترجم الى الفرنسية .

فلكونر Falconer ، بونشتتن Bonstetten عدة مؤلفات عن النتائج الاجتماعية التي تترتب على تغير المناخ (١) . أو ليس هناك اليوم من يعزو تدهور بعض الشعوب القديمة إلى تفشي الملاريا بينها . أو لم يعتقد البعض أنهم وجدوا أسباب الاختلاف في أشكال الحياة الاقتصادية والسياسية في تأثير أشعة الشمس أو تأثير الجفاف أو الرطوبة ؟ .

ولم يظهر الاهتمام ببحث ودراسة تأثير العوامل الخلقية أو الاجتماعية « les facteurs Sociaux » إلا منذ وقت قريب جدا . فليست المجتمعات في الحقيقة إلا نظاماً شاملاً وكائنات موحدة وعوالم متميزة . فهناك إذن صلة وثيقة بين الأعضاء التي تتركب منها كل وحدة وكذلك بين الوظائف التي تقوم بحياة هذا الكائن الموحد . هناك كما يقول البعض نوع من الرابطة أو التعاون بين هذه الأجزاء المختلفة وكذلك بين الوظائف المختلفة . فهذا الاصطلاح أو تلك العادة تفرض وجود اصطلاح آخر أو عادة أخرى تكون لها سبباً أو نتيجة . فالظواهر الاجتماعية تفسر لأن كل منها الأخرى أو يمكن تفسير كل ظاهرة منها في ضوء ظاهرة أخرى . وقد قلت من قبل إن القرن الثامن عشر قد عرف وأكد تأثير الأسباب الخلقية أو الاجتماعية إلى جانب الأسباب الطبيعية . ومع ذلك فإن تحديد الصلة الوثيقة أو التوافق في حدوث الظواهر الاجتماعية عمل قام أو يقوم به علماء الاجتماع في

(١) اقرأ كتاب فلكونر عن تأثير المناخ :

W. Falconer, Ueber den Einfluss des Klima, in-8o., 1785.

وكذلك كتاب بونشتتن .

Bonstetten, L'homme du Midi et l'homme du Nord, ou l'influence du climat, in-8o., 1824.

(٢) اقرأ كتاب هنتنجتون عن الحضارة والمناخ .

Ellsworth Huntington, Civilisation and Climate, in-8o., 1910.

العصر الحديث . ولا يزال هذا العلم إلى يومنا هذا في بدء تأسيسه . ونحن نستطيع أن نتتبع الخطوات التي تمت في هذا السبيل في النشرة السنوية لعلم الاجتماع L'année sociologique . ومؤسس هذه النشرة هو العلامة الفرنسي دوركيم Durkheim (١٨٥٨ - ١٩١٧) وقد استطاع بعبقريته أن يكون عالم اجتماع وعالمًا للاجناس البشرية (١) . ولكنه بدأ حياته وظل إلى حد ما مطبوعا بطابع الفيلسوف . فاهتم بدراسة علم الاجتماع ليستطيع أن يصل عن طريقه إلى تأسيس علم الاخلاق . ومع ذلك فإن أحدا لم يستطع أن يبلغ شأوه في بيان قيمة وأهمية الطريقة المقارنة في الكشف عن الظواهر الاجتماعية وتفسيرها . فقد أبان في قوة أن العلم الحقيقي لا يقوم بغير اتباع هذه الطريقة . واتجه جميع تلاميذه وأتباعه هذا

(١) يستطيع القارىء أن يتتبع التطور والتحول الذي طرأ على فكرة دوركيم حين يقرأ كتابه الأول وكتابه الأخير . وهذان الكتابان هما :

De la Division du travail Social, in-8o., 1893; *Les Formes élémentaires de la vie religieuse*, in-8o., 1913.

أما عن المصادر الفلسفية التي تأثرت بها فكرة دوركيم (وأهمها آراء كومت ورونفويه وفوندت) فيمكن الرجوع فيها إلى ما نشر في المجلة الفلسفية .
Revue philosophique, P. 119, 1887.

وكذلك إلى النشرة السنوية لعلم الاجتماع المجلد ١٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ . وإلى مجلة ما بعد الطبيعة والأخلاق .

Revue de Métaphysique et de morale, P. 186-187, Mars-Avril

1919.

وقد أوضح لنايموس في إحدى كتاباته الأخيرة أن لوسيان زهر هو الذي عرف دوركيم بالمقال الذي كتبه فريزر عن النظام الطوطمي Totemism في دائرة المعارف البريطانية ووجه اهتمامه بلا شك إلى دراسة علم الاجناس المقارن . ولا أدري إذا كان دوركيم قد قرأ كتاب العالم الأمريكي مورجان عن المجتمع القديم Ancient Society 1877 قبل أو بعد هذا التاريخ ولكن مما لا شك فيه أنه تأثر بهذا الكتاب تأثرا واضحا .

الاتجاه : أى المقارنة للوصول عن طريقها إلى التفسير مع مراعاة الدقة العلمية واتخاذ الاحتياطات الضرورية للوصول إلى النتائج الصحيحة . وقامت هذه المدرسة بدراسات اجتماعية قيمة عن الأساطير والشعائر الدينية وقام البعض على وجه الخصوص بدراسة عميقة لتقديم القرابين le sacrifice ودراسة السحر والعرف القانوني والزواج الخارجى L'exogamie ونظام القرابة والنماذج المختلفة للأسرة والنظم الاقتصادية الخ . . .

وهذه الظواهر أو النظم كما يينا يرتبط بعضها ببعض الآخر ارتباطاً وثيقاً ويمكن تفسير بعضها فى ضوء البعض الآخر وقد وجه علم الاجتماع فى أيامنا هذه كل همه إلى الكشف عن العلاقات التى تتألف من مجموعها هذه الرابطة الوثيقة .

ويجدر بنا الآن أن نقف عند هذا الحد فقد تتبعنا الخطوات التى مر بها علم الاجتماع إلى الوقت الحاضر وبدأنا فى التعرض للمستقبل . وقد أردنا فى هذا الكتيب أن نكتب مقدمة لا خاتمة . ويسرنى أنى استطعت أن أبين بوضوح أن علم الاجتماع كدراسة تحقيقية مقارنة قد خطا نحو التقدم فى الوقت الذى تقدمت فيه مراحل الكشف عن المناطق المجهولة فى هذا العالم . كما يسرنى أيضاً أنى استطعت أن أبين الدور الذى لعبه فى هذا التقدم المصلحون والمتنبئون وكذلك الدور الأعظم أهمية الذى قام به العلماء المدققون الذين عنوا بتأمل حياة الإنسان داخل نطاق المجتمع .

النهاية

بعض المراجع العامة

١ - كتب مدرسية وموسوعات ذات طابع عام

1. Hubert (R.) — Manuel élémentaire de Sociologie.
Programme des Ecoles normales primaires, in-8o.,
1925, XIV-440 pages. Librairie Delalain, Paris.

مبادئ علم الاجتماع تأليف العلامة هوبرت

هذا الكتاب يعطى فكرة عامة ومختصرة عن أهم النتائج التي سجلتها
أبحاث علم الاجتماع .

2. Deniker (J.) — Les races et les peuples de la terre.
(Deuxième édition), in-4o., 1926, VIII-750 pages.
Librairie Masson, Paris.

الأجناس والشعوب على سطح الأرض تأليف العلامة دينسكر

3. Buschan (G.) — Illustrierte Volkerkunde.
(Deuxième édition), deux tomes en trois volumes
in-4o., de 686, 1078 et 1154 pages. Librairie Stecker
et Schroder, Stuttgart.

الأنواع البشرية المصورة تأليف العلامة بوشان

كتاب جامع من أحسن ما كتب في الأثنوغرافيا الوصفية والمقارنة .
ويستطيع القارئ أن يضيف إلى هذه المؤلفات الكتب التي ورد ذكرها
في الفصلين الأخيرين من كتابنا هذا .

٢ - مجموعات من النصوص المختارة في علم الاجتماع

4. Bouglé (C.) et Raffault (J.) — Eléments de Sociologie.
Textes choisis et ordonnés, in-8o., 1926, 506 Pages;
Librairie Alcan, Paris.

مبادئ علم الاجتماع - نصوص مختارة ومرتبعة ومعاق عليها بقلم بوجليه ورافو

5. Kroeber (A.L.) et Waterman (T.T.) — Source-book in Anthropology, in-8o., 1920, 565 pages. University of California Press, Berkeley, Etats-Unis.

المدخل في الأنثروبولوجيا تأليف كروبر ووترمان .

٣ - قواميس في علم الاجتماع

6. Robinet (J.B.R.) — Dictionnaire universel des sciences morale, économique, politique et diplomatique, ou Bibliothèque de l'homme d'Etat et du citoyen, 30 Volumes in-4o., 1777-1783, à Londres chez les libraires associés.

القاموس العالمى للعلوم الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والدبلوماسية أو مكتبة رجل الدولة والمواطن تأليف العلامة رويذيه .

7. Conrad (J.), Elster (L.), Lexis (W.) et Loening (E.) — Handwörterbuch der Staatswissenschaften (3e. édition), 8 Volumes in-4o., 1909-1911. Librairie Gustav Fischer, Iéna.

قاموس العلوم السياسية تأليف كونراد ، إلستر ، لكسيس ، لوننج .
الطبعة المذكورة أفضل من الطبعة الحديثة .

٤ - مجموعات في مراجع علم الاجتماع

8. Bouglé (C.) et Déat (M.) — Le guide de l'étudiant en Sociologie (2e. édition), in-8o., 1921, 65 pages. Librairie Marcel Rivière, Paris.

مرشد الطالب في علم الاجتماع تأليف بوجليه وديا .
هذا الكتاب يحتوى على قائمة بأهم المراجع التى يسترشدها الطالب فى أبحاثه .

9. Maunier (R.) — Manuel Bibliographique des sciences sociales et économiques, in-8o., 1920, XVI-228 pages. Librairie du Recueil Sirey, Paris.

كتاب عن المراجع في العلوم الاجتماعية والاقتصادية لمؤلف هذا الكتاب . وهو يحتوى على قوائم مرتبة بحسب المواد عن المراجع العامة والخاصة في علم الاجتماع .

10. Université libre de Bruxelles, Instituts Solvay. Revue de l'Institut de Sociologie, in-8o., trimestriel depuis 1910. Institut de Sociologie, Parc Léopold, Bruxelles.

نشرة معهد علم الاجتماع التابع لجامعة بروكسل الحرة
أعداد هذه النشرة تحتوى على مجموعات وافية من المراجع الدورية مرتبة بحسب المواد .

٥ - نشرات ومجلات دورية

11. L'Année Sociologique — in-8o. annuel, puis trisannuel, puis de nouveau, annuel. Librairie Félix Alcan, Paris.

النشرة السنوية لعلم الاجتماع مؤسسها العلامة دوركيم .
ظهرت المجموعة الأولى في ١٢ مجلد من القطع الثمانى من ١٨٩٨ إلى ١٩١٢ .
وظهرت المجموعة الجديدة في مجلدين ابتداء من ١٩٢٦ . وتحتوى هذه المجلدات على أبحاث طريفة وعلى تلخيص ونقد لأهم المؤلفات التى كانت تظهر غرضون العام عن علم الاجتماع . وهاتان المجموعتان لا غنى عنهما لمن يريد أن يتبع التقدم الذى أحرزه علم الاجتماع المقارن .

12. Revue internationale de Sociologie, in-8o., mensuel, puis
bimensuel, depuis 1893. Librairie M. Giard, Paris.

المجلة الدولية لعلم الاجتماع - ظهرت أولا شهرية ثم نصف شهرية منذ
سنة ١٨٩٣.

(ملاحظة) هذه هي أهم المراجع التي أثبتتها المؤلف حين قام بنشر كتابه لأول
مرة في سنة ١٩٢٩. وغنى عن البيان أنه قد ظهرت بعد ذلك
مراجع أخرى قد تفوقها من حيث القيمة العلمية. ونحن ننصح
القارئ إذا أراد أن يطلع على أحدث المراجع في علم الاجتماع
أن يقرأ الكتاب الذي ظهر حديثا في أمريكا وعنوانه:

XX th Century Sociology

Edited by Gurvitch & Moore

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية في مجلدين ونشرته دار:

Les Presses Universitaires.

(المترجم)

بعض المصطلحات التي وردت في الكتاب

وترجمتها العربية

Aborigènes	السكان الأصليون في الجزر النائية
Abstention	امتناع
Action	حدث - فعل
Adaptation	تكيف أو ملاءمة للوسط
Adoption	التبني
Adoration	العبادة
Affirmation des causes	تأكيد الأسباب
Analogie	التشابه
Anarchie	الفوضى أو الفوضوية
Anatomie	علم التشريح
Anormal	شاذ أو غير طبيعي
Anthropologie Sociale	علم دراسة الانسان من الناحية الاجتماعية
Antiquité	العصور القديمة
Archaisme	الميل إلى دراسة القديم
Argot	اللغة الدارجة (بالنسبة للفرنسية)
Associations	تجمعات
Autobiographie	كتابة الانسان لتاريخ حياته بنفسه
Autorité sociale	السلطة الاجتماعية
Barbares	المتوحشون
Behaviour	سلوك

Bénédiction	المباركة
Berbères	البربر (سكان شمال إفريقيا)
Besoins	الحاجات
Biologie	علم الحياة
Blâme	التوبيخ أو اللوم
Camorra	عصابات قطاع الطرق
Caste	الطائفة (بالمعنى الموجود في نظام الطوائف بالهند)
Cercles de culture	دوائر ثقافية
Cérémonies religieuses	حفلات دينية
Chaldéens	الكنعانيون
Changement Social	التحول الاجتماعي
Chansons de Geste	الملاحم القديمة في الأدب الفرنسي
Chefs	رؤساء القبائل
Circulation des choses	دورة السلع
Civilisation	الحضارة
Civilité	قواعد التأدب
Clan	العشيرة (في المجتمعات البدائية)
Classes sociales	الطبقات الاجتماعية
Classification	التصنيف
Climat	المناخ
Coalition	تحالف
Codes	مجموعات القوانين
Coefficients de corrélation	معاملات الارتباط
Collections des documents	مجموعات الوثائق

Comportements sociaux	التصرفات الاجتماعية
Concepts	المبادئ العقلية
Conformité	التوافق
Confréries	الفرق الدينية (كالمصوفة)
Consanguinité	الاشتراك في الدم
Consommation	الاستهلاك
Contingence	الاحتمال
Contrainte Sociale	جبرية الظواهر الاجتماعية
Contrat	عقد
Corps de métiers	الوحدات أو الجماعات المهنية
Cosmographie	دراسة الكون من الناحية الطبيعية
Courtoisie	المجاملة واتباع آداب اللياقة
Coutumes	العادات الجمعية أو العرف
Croyances	معتقدات
Culte	العبادة من حيث موضوعها
Curiosité	حب الاستطلاع
Délit	الجرم
Démonstration des causes	توضيح الأسباب
Dépréciation	احتقار - امتهان
Descendance	الذرية - السلالة
Dialectes	اللهجات
Diffusion	الانتشار
Discussion des documents	مناقشة الوثائق
Distinction	التمييز

Distraction	اللهو أو الترفيه عن النفس
Donation	الهبة
Droit comparé	القانون المقارن
Echanges	التبادل
Effets	التأثيرات
Emprunt	قرض
Endogamie	نظام الزواج الداخلي
Ephébie	نظام التجنيد عند قدماء الإغريق
Esclavage	نظام الرقيق
Esprit de classe	الوجدان الطبقي
Etat	الدولة
Ethnographie	علم وصف الأجناس البشرية
Ethnologie	علم دراسة الأجناس البشرية
Evolution	التطور
Exogamie	نظام الزواج الخارجي
Exotisme	الميل إلى السياحة ودراسة الشعوب الشرقية
Expérience	تجربة
Expiation	التكفير
Explication des faits	تفسير الظواهر
Exploration	إكتشاف
Extravagance	الجرأة والتبجح
Fables	خرافات
Faits Sociaux	الظواهر الاجتماعية
Fatalité	حكم القدر

Féodalité	نظام الإقطاع
Fétiches	تعاويز
Fétichisme	الطور الخرافي بالنسبة للعقيدة الدينية
Foi	العقيدة
Folklore	الأساطير الشعبية
Fonction	وظيفة
Formation	تكوين
Fraternité	أخوة
Frontières	الحدود
Généalogies	تتبع الأنساب
Générations	الآجيال
Génies	الآرواح التي تسيطر على حياة الإنسان
Gens	الأسرة الرومانية
Gérontocratie	حكومة الشيوخ السحرية
Groupements Biologiques	التجمعات البيولوجية
Groupements Géographiques	التجمعات الجغرافية
Groupements Sociologiques	التجمعات الاجتماعية
Groupes d'âges	الجماعات التي تتكون على أساس السن
Guildes	جماعات التجار والصناع في العصور الوسطى
Habitation	السكن
Habitudes Collectives	عادات جمعية
Hébreux	العبرانيون
Hérédité	الوراثة
Hiérarchie	التدرج في المراتب

Honneur	الشرف
Humidité	الرطوبة
Idéologues	المثاليون
Imitation	التقليد
Impureté	النجاسة
Inconvénance	الخروج عن المألوف
Indice de dépendance	علامة التبعية
Inhumation d'objets	دفن الاشياء مع الموق
Initiation (cérémonies d')	مراسم الدخول في حظيرة الرجال
Institutions	النظم
Intuition	الحدس
Inventaire	سرد قائمة
Isolement	عزلة
Jargons	اللهجات المحلية
<i>Jus Sanguinis</i>	رابطة الدم
<i>Jus soli</i>	رابطة الأرض
Légendes	أساطير
Libre Volonté	الارادة الحرة
Liens quantitatifs	الروابط العددية
Ligue	حلف أو عصبة
Limites	حدود
Lithurgie	المراسم والصلوات الدينية
Loi des trois Etats	قانون الحالات الثلاثة (أو جست كومت)
<i>Maffia</i>	الجماعات السرية

(هذا الاصطلاح قاصر في الأصل على الجماعات التي تقطن الجبهات الجبلية في جزيرة صقلية ولهجة نظامها الخاص في القصاص وتطبيق العدالة وهي لا تخضع لقوانين البلد ولا لها كها . وكلمة Camorra التي سبق ذكرها تعبر عن نفس المعنى في إقليم نابولي)

Magie	السحر
Malédiction	اللعنة
Malfaiteurs	الأسرار
Matérialisme historique	المادية التاريخية
Matriarcat	نظام الأسرة القائم على سيادة الأم
Mélange	خليط
Mensonge	كذب
Métiers	المهن
Migration	الهجرة
Milieu social	الوسط الاجتماعي
Mise à l'index	التشهير أو النبذ
Mœurs	العادات الجمعية
Monachisme	حياة الرهبنة
Monothéisme	نظرية الأصل الواحد
Monographies	الدراسة الوصفية للوحدات الاجتماعية
Monogénisme	وحدة الإله
Morphologie sociale	دراسة الأشكال الاجتماعية
Mysticisme	حياة التصوف
Mythes	أساطير
Mythologie	علم الأساطير
Nécessité	الضرورة
Noblesse	النبل
Nomades	البدو
Nomes	التقسيمات الإدارية في مصر الفرعونية

(كانت هذه التقسيمات و الأصل تعبر عن -عنى العشائر الطوطمية وكان عددها يختلف بحسب التصور ولكن لم تتجاوز الألف بعين في غالب الأحيان)

Nomenclature	مجموع المصطلحات في فن من الفنون
Obligation	الإلزام
Observation	الملاحظة
Occupation	حرفة
Ordres monastiques	نظم الرهبنة
Organicisme	المذهب العضوي
Originalité	ابتكار
Ostracisme	النفي أو الإبعاد
كان اليونان يكتبون قرارهم بالنفي على نوع من الحار ومن هنا جاء الاشتقاق وقد ذكر	
منتسكيو أن قانون النفي كان معمولاً به في أثينا وأراجوس وسيراكيوز	
Parenté	القرابة
Patriarcat	نظام الأسرة القائم على سيادة الأب
Péché	خطيئة
Persécution	اضطهاد
Philosophie de l'histoire	فلسفة التاريخ
Phratrie	الانحاح: (مجموعة العشائر في نظام القبائل البدائية)
Polygamie	نظام تعدد الزوجات
Polygénisme	نظام تعدد الأصول
Polythéisme	تعدد الآلهة
Pouvoirs magiques	القوى السحرية
Prédation	السلب
Probabilité	احتمال
Profession	مهنة
Progrès	تقدم

Provinces géographiques	الأقاليم الجغرافية
Punition	عقاب
Pureté	الطهارة
Quartiers	الأحياء (في تقسيمات المدن)
Questionnaires	مجموعات الاسئلة (لدراسة ظاهرة معينة)
Race	جنس أو عنصر
Raillerie	تهكم - سخرية
Rangs	مراتب
Règles sociales	القواعد الاجتماعية
Relation	علاقة
Répétition	تكرار
Répression	قمع
Réprobation	استهجان
Restitution	إعادة الأمور الى نصابها
Ridicule	مثير للسخرية
Rites	شعائر
Rites funéraires	شعائر جنازية
Rites nuptiaux	شعائر الزواج
Sacrifice	تضحية
Sanctions sociales	الجزاءات الاجتماعية
Satire	مقطوعة شعرية للتهكم
Sciences sociales	العلوم الاجتماعية
Sciences morales	العلوم الأخلاقية

أصـ	Sectes	فرق أو مذاهب دينية
أصـ	Sédentaires	المستقرون في صعيد واحد
المتنـ	Sermon	خطبة للوعظ الديني
التغـ	Sib, sippe	الأسرة الجرمانية
الجلـ	Snobisme	حب الظهور
	Société civile	مجتمع مدني
	Sources historiques	مصادر تاريخية
	Statistique	إحصاء
	Statut	قانون أو لائحة
	Suggestion	إيحاء
	Superstition	خرافة
	Syndicats	نقابات العمال
	Tabou	المحرمات الدينية (عند القبائل البدائية)
	Tatouage	الوشم
	Technologie	الفن الصناعي
	Témoignages	الشواهد
	Tempérament	مزاج
	Théologie	علم اللاهوت
	Totem	طوطم
	Totémisme	النظام الطوطمي
	Traditions	التقاليد
	Transformation sociale	التغير الاجتماعي
	Tribu	قبيلة
	Types sociaux	نماذج اجتماعية

Usage

اصطلاح

Usages locaux

اصطلاحات محلية

Vagabonds

المشردون

Variations concomitantes

التغيرات المتلازمة

Voisinage

الجوار



فهرس الكتاب

صفحة

١ - ١

١

١ - ١

٣ - ٣

٢ - ٢

١ - ٦

٤ - ١٢

١ - ١٦

١ - ١٦

١ - ١٨

١ - ٢٦

١ - ٣١

١ - ٣٤

١ - ٣٧

١ - ٤٢

مقدمة المترجم

أهم مؤلفات المؤلف

مقدمة المؤلف

الفصل الأول : معنى علم الاجتماع

١ - تعريف علم الاجتماع

٢ - مجال علم الاجتماع

٣ - تسمية علم الاجتماع

الفصل الثاني : تعريف الظواهر الاجتماعية

١ - معنى المجتمعات

٢ - معنى الظواهر الاجتماعية

٣ - جزاءات الظواهر الاجتماعية

الفصل الثالث : تقسيم الظواهر الاجتماعية

أولاً : الجماعات الانسانية

١ - الجماعات البيولوجية

٢ - التجمعات الجغرافية

٣ - التجمعات الاجتماعية

فصل الرابع : تقسيم الظواهر الاجتماعية (نهاية)

٦٦ - ٤٩

١ - النصفان الاجتماعية

٥٧ - ٥٢

١ - حياة الانتاج

٦١ - ٥٧

٢ - حياة الاتصال

٦٦ - ٦١

٣ - حياة العبادة

٨٧ - ٦٧

فصل الخامس : طرق البحث في علم الاجتماع

٥٧ - ٦٧

١ - وصف الظواهر الاجتماعية

٧٩ - ٧٥

٢ - مقارنة الظواهر الاجتماعية

٨٦ - ٧٩

٣ - تفسير الظواهر الاجتماعية

فصل السادس : تاريخ علم الاجتماع

١٠٨ - ٨٧

١ - مرحلة الأعداد

٩٣ - ٨٨

١ - المقارنة المستوحاة من الكتاب المقدس

٩٩ - ٩٣

٢ - المقارنة في نطاق البحر الأبيض المتوسط

١٠٨ - ٩٩

٣ - المقارنة ذات النطاق العالمي

فصل السابع : تاريخ علم الاجتماع

١٣٢ - ١٠٩

١ - مرحلة التأسيس

١١٨ - ١١١

١ - مقارنة الظواهر

١٢٧ - ١١٨

٢ - الايقان بوجود الأسباب

١٣٢ - ١٢٧

٣ - بيان الأسباب

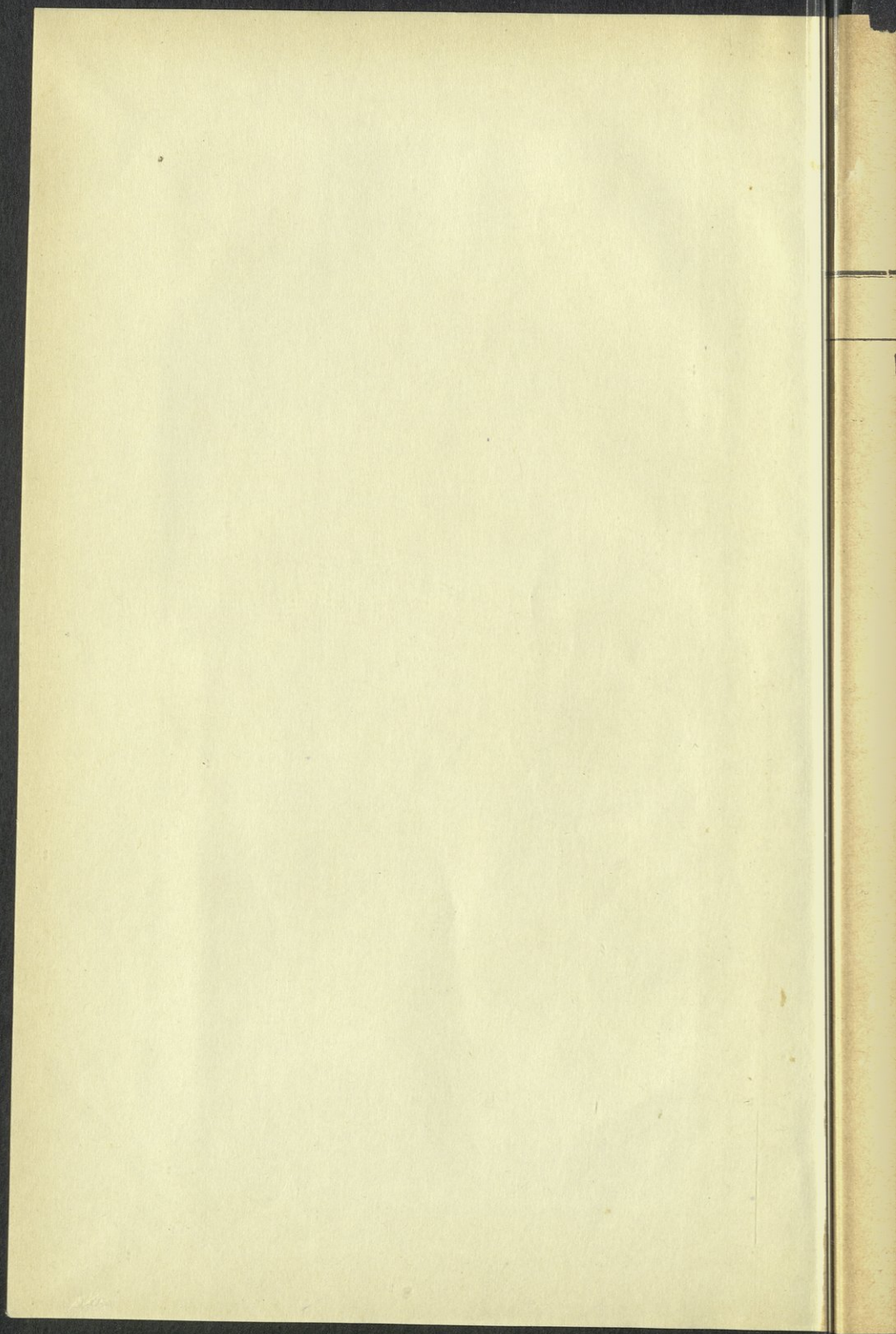
١٣٩ - ١٣٣

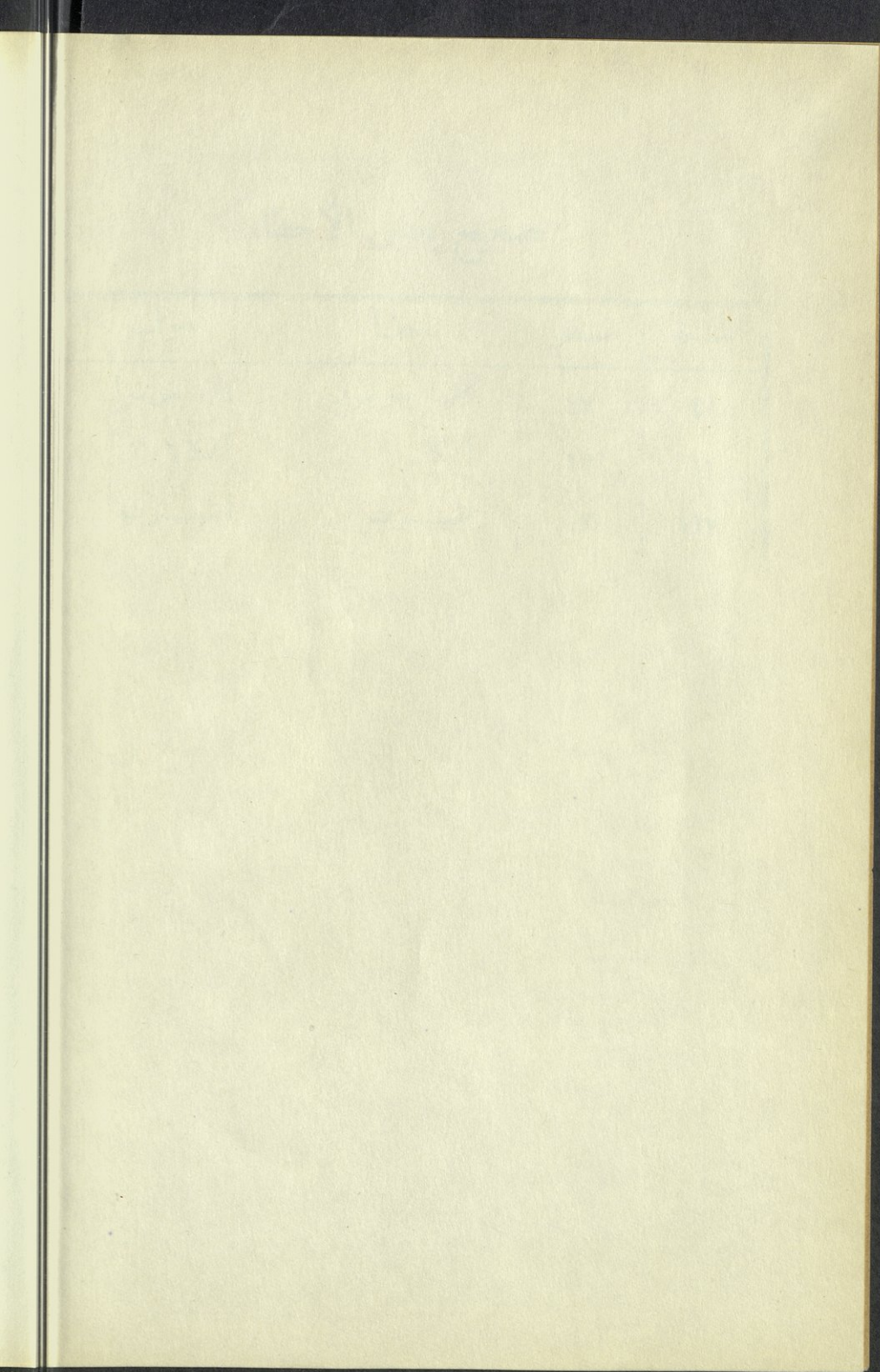
المراجع

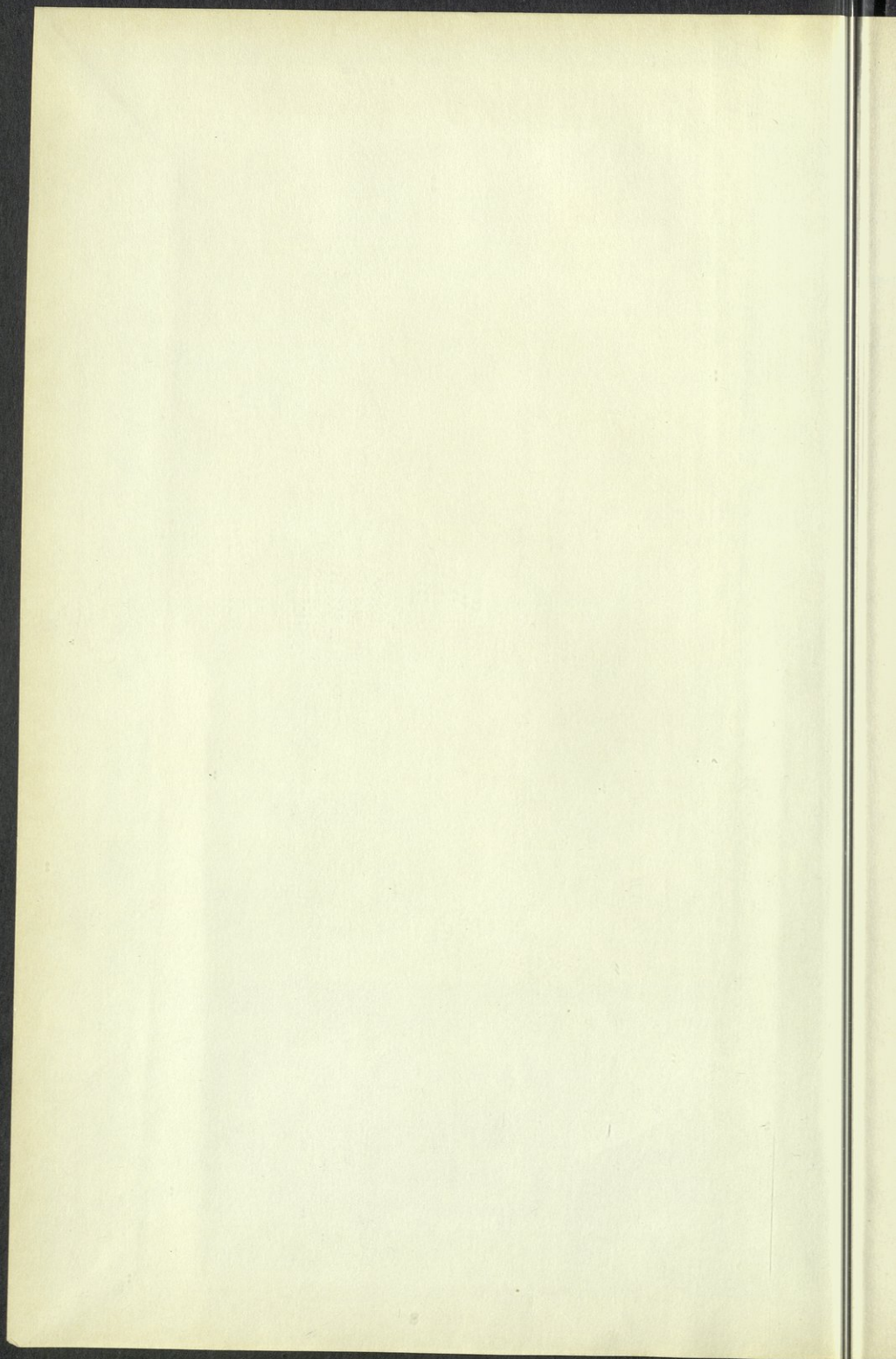
١٤٧ - ١٣٩ بعض المصطلحات التي وردت في الكتاب وترجمتها العربية

تصحيح بعض الأخطاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤١	١٧	كانوا يغرسون	كان يغرسوا
٦٢	١٢	أشكال	أشكالا
١١٧	٣	ظـهـرت	أظـهـرت







DATE DUE

I. Lib.

31 JUL 1988

[REDACTED]

بدوي، محمد

المدخل في علم الاجتماع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011070

[REDACTED]

